الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرنكشي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد السادس | « الثلاثاء ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

العبرة بالخواتيم

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتبتُ في عددكم الأول مقالاً عن صراع الدكتاتورية والديمقراطية فلم تعرض فيه إلى الدكتاتورية « أحرزت في مؤتمر ميونيخ ظفراً عظيماً لم تكن تحلم به ، ومنيت الديمقراطية بهزيمة شنيعة لا تكاد تنقضي حتى يكون لها أثر الآثار . وفي سير الحوادث ما يدل حقيقة على أن يوم ميونيخ كان يوماً عصيباً على الديمقراطية ، وكان يوماً حاسماً في سير ذلك الصراع الهائل الذي يضطرم بينها وبين الدكتاتورية ... »

وفي زميلتكم الرسالة كتب الدكتور محمد حسين هيكل يقول إنه « في ميونيخ هزمت الديمقراطية أكبر الهزائم ، وانتصرت الدكتاتورية أعظم انتصار . فخسرت فرنسا وبريطانيا نفوذهما السياسي ، وتضعضع مركزهما الدولي ، وانتقلت السيادة الأوربية في عدد الأيام على الأقل من يديهما إلى يدي الهر هتلر والسنيور موسوليني ... »

* * *

في الأخطاء ما يجب تصحيحه ، وهذا الخطأ منها .

لأنه خطأ شائع على أفواه كثير من المتحدثين وعلى أقلام كثير من الكتاب ، تساوى فيه الشرقيون والغربيون وأبناء الأمم الديمقراطية وأبناء الأمم الدكتاتورية ، وقد اعتاد الإنسان أن يخطئ خطأً كثير المؤيدين والموافقين فيكون مثل هذا الخطأ المأمون ، ولو إلى حين بعيد !

ولكن هل من الحق أن مسألة «السوديت» كانت مسألة صراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ؟

هل كان مذهب الحكم محور النزاع بين هتلر وشمبرلين أو بين هتلر ودلادييه ؟

كلا ولا ريب .

إنما كان محور الخلاف الاستيلاء على أرض السوديت المجاورة لبلاد الألمان . فلو كانت فرنسا موضع ألمانيا لنجحت مثل هذا النجاح ، ولو كانت ألمانيا موضع فرنسا لفشلت مثل هذا الفشل . فالمسألة هنا مسألة الموقع لا مسألة المذهب الذي يجري عليه الحكم في هؤلاء أو هؤلاء . ومما يؤيد هذا الرأي نقول : لم لم تهجم ألمانيا على البلجيك أو هولندة ، ولا نقول على الألزاس واللورين ، في سبيل المطالبة بالمستعمرات ؟؟

إذا كانت المسألة مسألة الموازنة [illegible] الطليقة وقوة الحكومات الديمقراطية فهنا [illegible] الترجيح بين القوتين .

فلماذا لم تهجم ألمانيا جهرة للمطالبة بمستعمراتها الضائعة التي استولت عليها الأمم الغربية ولا تزال تستولي عليها ؟؟

إذا كان الدكتاتوريون أقوى من الديمقراطيين فلماذا لا يأخذون مستعمراتهم عنوة بتهديد من هذا القبيل ؟؟

إنهم لا يحجمون زهداً ولا توقيراً للمعاهدات ، وإنهم لمحتاجون أشد الحاجة إلى المستعمرات التي في أيدي الدول الديمقراطية الكبرى أو الصغرى .

فإذا أحجموا فإنما يحجمون لسبب واحد لا يتأتى أن يخترع العقل الإنساني سبباً غيره في النهاية ، وذلك أنهم أضعف من الديمقراطيين ، وأنهم يخشون النزاع الذي يستحق عند بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة أن تخوض من أجله الحرب وتنقض من أجله السلام .

فليس مقياس القوة المنة من الغني يحتاج إليها الرجل الفقير فيتركها الرجل الغني لأنه آمن على مائدته في بيته ، بل مقياس القوة أن يهجم ذلك الفقير على خزانة ذلك الغني ثم ينظر ماذا هو فاعل وماذا هم فاعلون به !!

أما إذا استلف اللقمة التي لا حاجة بالغني إليها فليس من الحق أن نسمي ذلك انتصاراً للفقر على الغنى وللجوع على الشبع وللحاجة على الاستغناء .

هذه «قبرص» مثلاً ، فلتتفضل دولة من الدول المطلقة أن تسوق إليها بارجة واحدة مساق التهديد والإنذار إن كانت القوة في جانبها كما يعتقد بعض الكاتبين .

وهذه تونس ، وهذه كورسيكا ، وهذه بقاع الأرض في كل مكان ، فلماذا يعف عنها الدكتاتوريون ويحصرونها في المطالب الرسمية والوسائل الإرهابية إن كانوا قادرين ؟؟

[illegible] لا يضربون ، ولن يحاربوا الحرب من أجل [illegible] الأسباب إلا أن يكون ذلك يأس المنتحر [illegible] في الساعة الحاسمة ، ويوم أن يجيء اليوم الأخير .

* * *

وهل حق ما قاله الدكتور يوسف هيكل حين قال إن فرنسا وبريطانيا خسرتا نفوذهما بعد مؤتمر ميونيخ ؟ وإن مركزهما الدولي تضعضع ، وإن السيادة الأوربية انتقلت من أيديهما إلى أيدي هتلر وموسوليني في هذه الأيام ؟؟

الحق فيما نقرره وتقرره الحوادث معاً على نقيض ذلك ؛

الحق أن الولايات المتحدة دخلت في الميدان بعد مؤتمر ميونيخ إلى جانب الإنجليز والفرنسيين ، وتلك قوة تحسب لها الحساب الأول في ميزان السياسة العالمية .

والحق أن بولونيا انحرفت عن الألمان إلى جانب الروس والفرنسيين .

والحق أن رومانيا تخلصت بعد سنوات من "كودريانو" وأصحابه، وهم حزب خطر في الأمة الرومانية.

والحق أن حكومة دلادييه انتصرت على خصومها من الأحزاب الفرنسية بعد ذلك المؤتمر، وأنها ظفرت من أملاكها في البحر الأبيض المتوسط بولاء لم تكن تطمع فيه قبل ذلك.

والحق أن أمم الشمال تتوجس اليوم من كل نجاح يناله الدكتاتوريون، ولا تتمنى لهم إلا الخيبة والإخفاق.

هذا هو الحق من نتائج المؤتمر المزعوم، وسنرى بعد اليوم من شأنه أنه كان الناقوس الذي سيحمل الدكتاتورية إلى المأتم، إن كان يعني شيئاً من الأشياء.

***

وأكاد أقول إن حرباً من الحروب في الدنيا قديمها وحديثها، لم تنكشف عن أمة مغلوبة وأمة [illegible] النصر فيها للأحرار على المقيدين.

ولا يعوزنا في هذا أن نعود إلى الحرب العظمى ونرى كيف كانت الهزيمة للحكومات الدكتاتورية من الجانبين، حتى جانب الحلفاء المنتصرين.

ولا يعوزنا في هذا أن نعود إلى حرب نابليون والانجليز وهو أكبر القواد ومعه حلفاء كثيرون من ملوك الأوربيين.

بل نعود إلى اليونان وهم يهزمون الفرس، وإلى العرب وهم يهزمون الرومان، وإلى الرومان وهم يهزمون القارة الحديثة، وإلى الانجليز وهم يهزمون الأسبان.

بل نعود إلى تيمورلنك وهو يحارب بأناس مكرهين على القتال، وأناساً فقدوا الحرية وسيقوا راغمين إلى الدفاع أو الهجوم.

فالعالم كله لا يعرض لنا في تاريخه انتصاراً واحداً إلا كان في حقيقته انتصار النوع من الديمقراطية على نوع من الدكتاتورية، ولعل عبرة العبر في هذا الباب أن هتلر وموسوليني لم يجسرا حتى اليوم على إلغاء مجلس النواب ولا قوانين الانتخاب، لأنهما يعلمان أن الدكتاتورية بغير شفاعة من الديمقراطية لن تعيش في هذا الزمان ولو إلى حين.

***

إن القياس الصحيح لمذهب من مذاهب الحكم هو سلامة العالم على يديه أو سلامة الأمة التي تحتمي به في وجه العالم.

فأي هذين الأمرين يحكم للدكتاتورية بالفلاح فيما نراه من الحاضر أو نتوقعه من المستقبل القريب؟

أما سلامة العالم فحسبنا من مصائب الدكتاتورية أنها [illegible] بين الشعوب كلها وجهود العاملين كلهم في [illegible] عدة ملايين — بل ملايين الملايين — [illegible] على النار والحديد أو من آثار [illegible] الدكتاتورية لا يحمده إنسان.

وأما سلامة الأمم فلا نخال أحداً يزعم أن الأمن على مصير ألمانيا وإيطاليا أعظم وأضمن من الأمن على مصير بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة، ولو نشب القتال غداً ولا نقول بعد سنوات قصار أو طوال.

وزد على هذا نعمة الأمن في الحياة والأمن على الحرية، وهما نعمتان لا يرجحان في نظر أحد إلا أن تكون حياته وحريته من سقط المتاع.

***

وعندنا أن شيوع التفريط الدكتاتورية في الآونة الحاضرة إنما نشأ من غلبة العدد على الصفة، أو من غلبة السواد على ذوي الرأي، أو من وجود أناس كثيرين في الأمم لا يعنيهم أن يفقدوا حرية التفكير لأنهم لا يملكون

التفكير نفسه حتى يأسوا في ضياع الحرية منه ، ولا يعنيهم أن يفقدوا الكرامة لأنهم لم يجدوها قبل أن يفقدوها ، ولا يعنيهم أن يدرسوا ولا أن يبحثوا ولا أن يقابلوا بين السيئات والحسنات ، ولا بين النظريات والمواقف ، كما يعنيهم الزعيق والتهليل والسير في المواكب والضرب والعدوان وإطلاق الغرائز الهمجية بغير عنان .

وأسهل الحيل أن تشيع هنا في مصر شباناً يحبون هتلر ويطلبون سيادة الشباب من أجل ذلك ، وهم لم يقرأوا شيئاً لهتلر ولا عرفوا رأيه في السيادة السياسية ، ولا عرفوا أنه يحظر في كتابه أن يشتغل بالرأي السياسي رجل لم يبلغ الثلاثين .

والحكاية « فيصة » لا موجب فيها لمثل هؤلاء الأغرار للبحث ولا للنظر في المواقف ، أو من يحكم في ميدان السياسة كالحكم في ميدان [illegible] والأعراس ، والتحزب بعد ذلك [illegible] وتعطيل الحرمات ، فإن عطف هؤلاء [illegible] الشكلين لفرقة « رياضية » لا في جانب العرس والعروس والمقبلين ، ونظام الجميع وعادة البيوت .

* * *

لقد ظهرت النازية في ألمانيا لأسباب خاصة بها في تاريخها البعيد وتاريخها القريب .

فنظام الفروسية والإقطاع والولايات المتفرقة كانت له الغلبة على الحكم الألماني إلى ما قبل سنين معدودة ، ثم بلغت قداسة العسكرية عندهم أوجها بعد أن تغلبت آثار العسكريين والفلاسفة والدعاة بينهم بحكومة عليا تجمع سائر الحكومات في دولة واحدة ، ثم تمكنت هذه النزعة كل التمكن ولا تزال من [illegible] عندهم للجيش ولطبقة القواد والضباط ، ثم جاءت الهزيمة في الحرب العظمى فأحيت ما تقدم وما تأخر فيهم من عادات الطاعة والخضوع والتحمس والانتقام .

والدكتاتورية حالة خاصة في أمم خاصة لها تاريخ خاص ومطالب خاصة ، لا مشابهة بينها وبين الأمم الأخرى في شيء من ذلك ، ولا موضع للمقابلة بين عناصر الدكتاتورية وعناصر الديمقراطية على النحو الذي يتردد في بعض الآراء .

وللديمقراطية عيوبها ولا خلاف . ولكن أين هو العمل الإنساني المعصوم من العيوب ؟ أليس من مزايا الديمقراطية أنك تتحدث في ظلها عن عيوبها ؟ فمن ذا الذي يتحدث عن عيوب النازية في ألمانيا أو عيوب الفاشية في إيطاليا أو عيوب الشيوعية في الجمهوريات الروسية ؟ وكيف تزول عيوب لا تجسر على الإشارة إليها [illegible] ؟ وكيف تنقذ أمم من عواقبها الجامحة إلا [illegible] الهاوية ؟

[illegible] بالعيوب والجرائم ، وإنما الدكتاتورية حالة عارضة لأسباب عارضة ، مثلها مثل الحوادث التي تخصصها بالسموم قبل ساعة السباق [illegible] في شوطه ثم يموت .... أما الديمقراطية فهي فرصة الإنسانية في الارتقاء من الجهل إلى المعرفة ، ومن الخضوع الأعمى إلى الحرية الرشيدة ، ومن الفرد الذي لا قيمة له في القبيلة إلى الفرد الذي له القيمة الكبرى في الحياة ، وحسبها فخراً وشهادة أن العالم قد ارتقى في ظلالها خلال قرن واحد ما لم يكن له ارتقاؤه في مئات القرون . فمن قال إنها ذات عيوب وسيئات ، فمن ذا الذي قال إن الإنسانية تنتهي اليوم ولا تطرد في سبيل التقدم والارتقاء ؟! خير لنا أن ننتظر صلاحها من أن نهدمها وهي أنفس ما ربحناه من الحضارة ، لأن الحضارة قائمة على حماية الروح وحماية الفكر ، ولا أمان على هذين في حكم الاستبداد .

عباس محمود العقاد



ذهب الشاب ، ولم أجرؤ على إخباره بهذا [illegible]

ومضت الأيام . وجاء الميعاد ، وحضرت الفتاة [illegible] متجهما . فأدركت العلة والسبب :

— نعم . لقد كذبت عليك كثيرا [illegible]

فقلت لها في شيء من الجفاء :

— ليس يعنيني الآن كذبك علي ، إنما الهم هذا الموقف الذي وضعتني فيه .

فقطبت جبينها :

— أي موقف ؟

فقلت :

— لماذا كذبت على خطيبك أيضا ؟ لماذا أخفيت عنه أمر زيارتك لي ؟

فضحكت ضحكة الفتاة المدللة ، الزهوة بحسنها ، غير العابئة بخطيبها :

— لست أدري . لقد نسيت أن أذكر له أني إلى جانب شغفي «بالتنس» و «السينما» و «السباق» ، أحب كذلك أحيانا : «الكتب» !

فهتفت فيما دهشا :

— سبحان الله ! أهو أيضا قد أصبح فرعا من فروع الـ «سبور» ؟!

فابتسمت وقلت :

— نعم ، إن مهمتك في هدايتي شاقة كما ترى !

هل أبتسم . ولم تفرج أساريري . ولم يغادر وجهي ظل القلق القاتم . ولم أستطع أن أبرر أمام ضميري هذا الموقف الغامض . فقلت مطرقا كالمخاطب نفسي :

— وبعد ؟ ما العمل ؟

فقالت الفتاة ساخرة :

— يا للهول الخطب ! ويا للفداحة المصيبة ! إن هذه الأكذوبة من غير شك مغرقة لن تغتفر !

فقلت لها لائما :

— أتسخرين أيضا ؟

[illegible] المذرة . إني أراك مهموما لغير أمر يستوجب [illegible] حتى لا ترى في الحياة شيئا يحمل على الاكتئاب !

فقلت لها :

— هنيئا لك هذه النفس التي ترى الحياة من خلال مضرب «التنيس» !

فقالت باسمة :

— إني أراها أكذوبة طريفة وأمزوحة لطيفة !

فقلت لها وكأني أناجي نفسي :

— ليس لي مع الأسف الحق أن أراها كذلك . إنما هي حقيقة واقعة ، وواجب محتوم ، وعبء ثقيل ، كتب علي أن أحمله فوق منكبي حتى تخرج أنفاسي !

فقالت وهي تنظر إلى كتبي وورقي ومكتبي الغارق في ظلام المكان :

— نعم ، إن حياتك سيبقى [illegible] ظهرك أمرت

أن تسير به إلى آخر الرحلة ! لكن ... لماذا أنت تراها كذلك ؟!

فقلت متنكراً :

— لست أدري . وقد ألهمتها أنت ؛ إني أمرت أن أسير هكذا . وهل أملك أنا حرية الفكر ! إنك قد خلقت لتعيشي حياتك . وأنا قد خلقت لأعيش حياة فكرة . فأنا لست أرى الشمس والهواء . ولكني أرى الفكرة التي تحركني وتجرني كما تحرك اليد القفاز . هكذا أراد لنا القدر . ما أنت لديه إلا كرة من كرات « التنس » يقذف بها في الفضاء . فأنت حرة حرية هذه الكرة . أما أنا « فمضرب » في يده ، مستقر القبضة ، حبيس في كفه ، لا يطلقني منها حتى ينتهي اللعب !

فقالت على مهل ، كأنها تتأمل عباراتي :

— هذا صحيح ... لكن ...

وعدت إلى نفسي . وتذكرت ما كان يشغل بالي قبل ذلك . فأسرعت أقول لها :

— لكن ، أتدرين أنت : لماذا أخفيت عن خطيبك [illegible] وأني من تكون الفتى في ....

فعاد إلى شفتيها الابتسام وقالت :

— يجب أن أريح ضميرك المتعب وأقول لك إن أمر زيارتي يجب أن يظل بيننا سراً خفياً ، ألا ترى ذلك واجباً !

فقلت لها :

— أتظنين أنك تريحين ضميري بهذا الكلام ؟!

فنظرت إليّ ملياً :

— أتراني حقيقة أرتكب خطيئة من الخطايا ؟

فقلت لها على الفور :

— نعم ، وتريدين أن تشركيني معك فيها .

فقالت :

— أو احتفاظنا بهذا السر خطيئة ؟

فقلت :

— ليس لنا أن نخفي عن خطيبك سراً .

فأطرقت لحظة . ثم رفعت رأسها وقالت كالمخاطبة نفسها :

— أليس لي أن أحتفظ في مجاهل نفسي بمنطقة لا يرتفع إليها السؤال ؟ إني أشعر بشيء لست أدري مبلغ فهمك إياه ، إن المرأة وحدها تفهمه . لا بد للمرأة من أن تخفي شيئاً عن زوجها . قد يكون سواراً من الذهب اشترته خلسة . وقد تكون ذكرى من ذكريات ماض عزيز . وقد تكون فكرة نبيلة أو سخيفة تؤمن بها ولا تحب أن تشرك أحداً فيها . إن إحساسي اليوم هو من هذا القبيل . إن زيارتي لك وأحاديثي معك وآرائي التي أفضي بها إليك ، وسويعاتي التي تبادلنا فيها معاً شئون الفكر ، كل هذا يلزم أن يوضع في صندوق من صناديق الحلي ، ليس له غير مفتاحين ، أحدهما معي والآخر معك ...

* * *

أطرقت ملياً وفي الأمر حيرة ! مهما يكن من أمر فإن الفتاة تمس موضع الجرح . وقد كنت أجهل عندما [illegible] أما وقد رأيته وعرفته وأتوقع [illegible] سمو هذه الصلة ، فكيف أستطيع [illegible] في كتمان الأمر عنه ؟ على أن من ناحية أخرى أحب أن أفهم تفكير المرأة وأن أحترم إرادتها وأن أبقي لها على هذا الخيال الجميل الذي تحب دائماً أن تحيط به الأشياء . إذن فلا مفر من السكوت . ولأتجاهل الصلة التي بينهما . وما دام الخطيبان سيزورانني في أوقات مختلفة ، فلأفترض أنهما بالنسبة إليّ صديقان منفصلان . ولكن الفتاة التفتت إليّ قائلة :

— هناك مع ذلك أمر يحسن أن أنبهك إليه .

فنظرت إليها قلقاً :

— ما هو ؟

فقالت في هدوء :

— سوف يدعوك بالضرورة خطيبي إلى زيارتنا أو إلى مشاهدة « التنس » حيث يقدمك إليّ ، فحاذر أن يبدو عليك ...

ثم أسمع السباق ، ولم أملك صبراً ... وصحت صيحة
دوت في المكان :

— أيتها الفتاة ... أيتها الآنسة ! إني أسمح لك البحث أن يمتد إلى أحد من صحفنا ... إنك من غير شك تعيشين والصحف ، وأنا الذي أحسست القلق شعر ذلك ، وأضيف عليه كل ما استطعت من افتراضات عالية .

فاحمر وجه الفتاة وقالت في رباطة الجأش التي لم يتطرق إليها :

— ما الذي حدث منى ؟ ما الذي أغضبك ؟

فحدجت إليها النظر دهشاً :

— عجباً ! ألا تعرفين ؟

فقالت :

— أتتهمني بالعبث واللعب ؟

قلت وقد رفقت في الكلام :

— وماذا أسمي ذلك إلى أن ... تقصين إليك خطيبك ؟ أتقضين رجلاً ... يفعل ذلك ؟ إن ما تشاهدينه في « السينما » لا يغير في قلوبنا ، والكلمات خلاف الأشياء ، ولا أن ينفسه من تقديرك للأمور . إنك أيتها الآنسة ما زلت واقعة تحت تأثير هالتك الناقد ، وما زال أسلوبك الخيال ، والسينما و « التليس » و « السباق » هم الذين يقودون خطواتك في الحياة .

فنظرت إلي نظرة كلها عتاب ، لست أنكر أنها أثرت في نفسي . وقالت :

— أهذا رأيك في ؟

فأمسكت وقلت :

— نعم ، مع أسفي الشديد !

فقالت :

— كنت أحسبك تعتقد أن روايتي السابقة قد استطاعت أن ترفعني إليك درجات .

فقلت لها في غير مداراة :

— لا يا سيدتي ... بل إنها قد استطاعت أن تنزلني إليك درجات .

فلمحت فيها دهشة امرأة لم ترها خيبة ، وقد فوجئت بها لأول مرة ... وصحت أنا أقول :

— ألا تصدقين ؟

فقالت في صوت أحسست في باطنه غبطة مستورة وارتياحاً خفياً :

— أنا إذن في عينيك تافهة ...

فأسرعت قائلاً :

— نعم ... لقد حاولت أن تعلميني « الكذب » وأن تهبطي بي إلى ملاعب « التليس » ... وأن تلجئيني إلى تمثيل دور من أدوار « السينما » ... كل هذا في معنى ... أرأيت مقدار تفاهته ؟

فضحكت ضحكاً طويلاً رقيقاً ، امتزج رنينه اللفظي ... ثم قالت :

— ... أتصدقني في شيء ؟

فقلت في الحزن :

— لست أتبع براهين تعاج ...

غير أني ذكرت حالة قول خطيبها لي إنها قرأت « الأيلس » في ثلاث ليال ... وإنها عكفت على مطالعة كتبي كلها ... وأن هذه القراءة ، مهما كان الباعث لها ، تعتبر تقدماً على كل حال ، وخطوة في طريق الوصول بالنفس إلى مرتبة أسمى ... وأردت أن أستوثق من هذا الأمر ، فسألتها في ذلك ، فتغير وجهها قليلاً ، ثم ملكت نفسها وقالت :

— من أخبرك أني قرأت كل هذا ؟

فقلت لها :

— خطيبك .

فقالت لي وهي تحدق إلى النظر :

— أو صدقته ؟

عن أمر ماذا أجيب . غير أني فكرت مليّاً في الأمر ثم قلت للفتاة في جد وحزم :

— اسمعي أيتها الآنسة ! لقد اتضح لي الأمر : أن فيما يظهر لي قد بلغت غايتك . إن خطيبك يعتقد على أي حال أنك تحبين وأنك تقرئين ، فأما أنك قد خدعت خطيبك وتحايلت عليه وأدخلت في روعه كذباً هذا الاعتقاد ، فهو نجاح لطريقتك ، وإما أنك حقيقة قد تحبين وتذوقت الأدب ، فذلك حسبنا ولم يبق لك من حاجة إلى زيارتي . ومحتم لي إذن أن أحييك وأن أشكر لك تشريفك هذا المكان وأن ... أودعك !

فنظرت الفتاة إلى وجهي لحظة ، ورأت الجد في ملامحي والعزم في عيني ، ولحظت من حركة انصرافي عنها إلى كتبي وورقي ومشاغلي الفكرية ، وشعرت كأن ساعة الزيارة قد دقت وأن على الصارم قد انتهى إليه . فلفظت من بين شفتيها بصوت كالهمس :

— وداعاً !

ولم ترد على تلك الكلمة شيئاً . وتناولت قفازها وجعلت تضع أصابعها فيه على مهل . ثم قالت :

— وأشكرك !

ومضت إلى الباب . واختفت كما يختفي الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم ...

توفيق الحكيم

ملحوظة — سنشرع ابتداء من العدد القادم فيما كنا [illegible] هذا الباب من أبحاث وهو البحث عن الكتب التي [illegible] تحت عنوان الأخضر .

ف .

في عالم الزوايا

للأستاذ شفيق جبري

أقابل من سنين عشر بعضها بين أدبنا وبين أدب الفرنجة . والغرض الذي أرمي إليه في أثناء هذه المقابلات ، إنما هو الوقوف على الأسباب التي أعتقد أنها قد تزيد في قوة أدبنا وفي ثروته ، فلا تزال الأمم تقتبس بعضها من بعض ، ومن نظر في آدابها في القديم والحديث عرف كيف تتلاقح الثقافات ، ولمس آثار هذا التلاقح .

في أساليب فريق من أدباء الفرنجة ، المتقافة روح العلم في أدبهم ، ولأضرب لذلك مثلا :

دارت ذات يوم بين « أناتول فرانس » وبين رفيق له في المدرسة أحاديث شتى ، وقد أدركهما الوقت الذي يتعين لكل واحد منهما أن يختار فيه إما الأدب وإما الاختصاص في العلم ، فاختار « أناتول » الأدب ، ولكنه ندم ، بعد أن نضج فكره ، على هذا الاختيار ، فقد رأى أن الأدب إذا انفصل عن العلم كان أعرج ، لأن العلم إنما هو مادة الأدب ، وأن العلم إذا انفصل عن الأدب كان ثقيلا على الطبع ، غير مستقول . بيد أن أمثال هذه الخواطر لم تشغل ذهنه اللطيف في أول مرة ، فبدلا من أن تستهويه رؤية شكل هندسي حب التطلع فيه ، كان يخالجه الحزن من رؤية هذا الشكل ، وتنقبض حواسه ، فقد كان مثلا يعض رؤية دائرة ، ولكنه كيف كان يستطيع أن يحسن رؤية دائرة أو مخروط ! كيف كان يستطيع أن يحالف هذا العالم الكثير الجفاف ، عالم الزوايا اللاذعة الشوك ، على حين كان يجد في الأدب أشكالا مختلفة وألوانا متباينة ، كان يجد فيه بين فترة وفترة حيوانات وأنهارا وغابات وجبالا وأدغالا ، كان يجد فيه شجرا عزيزا في الشراء ، وظلا يتحدر في السنا من الجبال .

ولكنه لما نشأ وترعرع ، وذاق الحياة وخبرها ، سجد لرجال العلم في ماضيه وحاضره ، الذين اخترعوا الأعداد ، وقسموا العوالم ، وأصابهم العذاب في سبيل حبهم الحقيقة ، سجد لهؤلاء أنصاف الآلهة واستغفرهم من ذنوبه .

حتى إنه رأى أن الغريزة التي دفعته في صباه إلى الولوع بالأدب لم تغشه ولم تخدعه ، فقد صاحب اليونانيين في ظلال المدرسة ، فعرف كيف علموا البشر العلم والجمال ، وملأ فكره من الرومان ، فشاهد كيف أوحلت العصور على العالم .

[illegible] الرغم من هذا كله بقيت في نفسه حسرة على [illegible] ، لأنه ندم بعد أن فكر أن العلوم الرياضية [illegible] أن تعمر الأذهان ، وأن تجعل لها [illegible] أساتيذ الأدب كانوا يجعلون من عقول الطلاب عقولا مثل الطبول ، يسمع لها دويّ وهي خاوية .

وكأني به بعد أن أحس هذا الإحساس في كبره ، قد أراد أن يتلافى ما فاته في صباه ، فأدس في أدبه الصافي بالعلم الذي أوحشه في فطارة عوده ، فزوج خطوط الهندسة بخطوط الطبيعة ، وألف بين قواعد الأرض وقواعد المثلثات ، فحلى هذا العالم الجاف حلاوة ، وطبع الدنيا الهرمية لسانا ، فناسق بين الأدب والعلم .

فبدلا من أن يقطب في وجه الهندسة ، كان يسمع رفيقه في عهد « بونويه » في باريز بأن يمزج أحاديث الأدب والمسارح بأحاديث المثلثات !

فتح هذا الرفيق مرة دفتره ، وبعد قليل من الصمت خط على صفحة بيضاء في غير حذق ومهارة شكلا هندسيا ، أراد أن يكون مثلثا متساوي الساقين ، ثم ابتسم وعرض هذا الشكل على بصر « أناتول » وقال له :

— أرأيت هذا ؟

— نعم ، هذا مثلث !

— إنه مثلث ، وإنه رمز حياتي !

ثم خطّ بين ساقي هذا المثلث في شيء من الهدوء وفي شيء من الحسرة ، ذاهباً من قاعدته خطوطاً موازية لهذه القاعدة ، وكانت هذه الخطوط تقصر كلما دنت من رأس المثلث ، ولما خطّها جميعاً قال :

— خمس سنين ... عشر سنين ... اثنتا عشرة ... ثلاث عشرة ... أربع عشرة ... خمس عشرة ... ست عشرة سنة ... أرأيت كيف تنقص وكيف تنتهي ، وبعد قليل من التردد ، مسّ رأس المثلث بطرف قلمه وقال : سبع عشرة سنة ، يقضي الإنسان ، وهنا الخاتمة !

أضف «أناتول» على تركه الهندسة ، فإن هذه الهندسة قد تكون مادة في أدبه ، فما أكثر الكلام في هذا الأدب عن الحياة ، وعن طولها وقصرها ، فلو يريد «أناتول» تشبيهاً محسوساً يصور [illegible] الخطوط التي تتشعب من قاعدة المثلث المتساوي الساقين وتنتهي في رأسه ، فإن الإنسان إذا وضع عينه على هذا المثلث ورأى هذه الخطوط كيف تنقص كلما دنت من الرأس ، أدرك أن أيامه تقصر كلما دنت من خاتمة حياته ، حتى إذا مسّت الخطوط رأس المثلث مات فيه كما تموت الحياة في ظلمات الأرض !

وكما لجأ إلى الأشكال الهندسية في تمثيل قصر الحياة ، فقد لجأ إليها في تمثيل نسبة الأشياء ، فاسمع ما يقوله أحد أشخاص روايته «تاييس» للراهب «بافنوس» ، وقد سأله عن السبب الذي من أجله يحرم نفسه طيبات الدنيا :

«أيها الغريب ! إني لا أحرم نفسي شيئاً من الطيبات ، وإني لآخذ بالاعتدال إلى حظ من الحياة أرضى به بعض الرضى ، وإذا توخينا صحة الكلام فليس في الدنيا حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف أو معيب في ذاته ، ولا شيء عادل أو غير عادل ، لذيذ أو أليم ، صالح أو فاسد ،

وإنما الرأي هو الذي يجعل صفات الأشياء ، كما يجعل الملح طعماً للأكل .

«الأشياء الواحدة لها مظاهر متفاوتة ، فإن أهرام «منفيس» تلوح في مطالع الشمس كأنها شكل مخروط ينبسط عليه ضياء وردي ، وفي مغربها تلوح كأنها في السماء الملتهبة مثلث أسود اللون ، ولكن من الذي ينفذ فكره إلى مادتها العميقة ، أنت تتهمني بأني أنكر الظواهر ، على حين أن الظواهر إنما هي الحقائق الوحيدة التي أعترف بها ، فالشمس تظهر لي مضيئة ولكني أجهل طبيعتها ، وأنا أشعر بأن النار تحرق ، ولكني لا أعرف كيف تحرق ، ولماذا تحرق ...»

ولم يستغن «أناتول» بالهندسة وحدها في تقرير الأمور النسبية التي يحتمل فيها الشك في كل شيء ، فقد [illegible] ، حتى لم توحده الأشكال الهندسية ، فما أوحته [illegible] ، فانظر في كلامه عن محاسن الأدب [illegible] :

إن أحكام [illegible] من حيث الفلسفة ، صحيحة مثل أفكارنا ، لأنهم يتصورون العالم الخارجي بحسب الصور التي ترتكز فيهم ، وهذا ما نفعله نحن معاشر العقلاء على وجه الضبط ، فإن العالم ينعكس إليهم على غير الصورة التي ينعكس فيها إلينا ، فنقول : إن الصورة التي تأتينا من هذا العالم صحيحة ، وإن الصورة التي تأتيهم منه غير صحيحة ، وفي الحقيقة أنا لا نجد صورة صحيحة على وجه الإطلاق أو غير صحيحة على وجه الإطلاق ، فصورهم صحيحة في نظرهم ، وصورنا صحيحة في نظرنا ، اسمع هذه القصة :

صادفت ذات يوم مرآة مستوية في بستان من البساتين مرآة محدبة فقالت لها :

«إني أحدك حتى في تمثيلك الطبيعة على النحو الذي تمثلينه ، فينبغي لك أن تكوني محزونة لأنك تمثلين لشكل الصور بطناً منتفخاً وأقداماً ورؤوساً مستطيلة ، دقيقة ، وتمثلين كل الخطوط المستقيمة فتجعلينها منحنية » .

فقالت لها المرآة المحدّبة على سبيل التهكم: «ألست التي تشوهين الطبيعة، فإن صورتك المستوية تدل على أن الشجرات إنما هي مستقيمة لأنها تمثلها هكذا مستقيمة، وأن كل شيء إنما هو مستوٍ سواء أكان خارجاً عنك أم داخلاً فيك. إن سيقان الشجر منحنية، وهذه هي الحقيقة، فلست إلا مرآة خادعة!».

فقالت لها المرآة المستوية:

«إني لا أغش أحداً، أما أنت أيتها المرآة المحدبة، فإنك تصورين الرجال والأشياء في صور مضحكة».

وقد اشتد الجدل بينهما فمرّ في أثناء ذلك مهندس فقال لهما:

«يا صديقتيّ: أنتما على صواب وعلى خطأ في وقت واحد، إنكما تعكسان الصور حسب قوانين البناء، والأشكال التي تعكسانها إنما هي أشكال مضبوطة [illegible] فكلتاهما صحيحة، والمرآة المقعرة لو [illegible] عن صورتكما، ومع هذا فإنها صحيحة [illegible] فلا يرى أحد وجهها الحقيقي، ومن الممكن أنها لا توجد إلا في المرايا التي تحكي هذه الطبيعة، [illegible] أن لا تقول الواحدة للثانية: إنك مخدوعة، لأن الأشياء لا تنعكس على كل واحدة منكن انعكاساً واحداً».

* * *

لم يكن «أناتول فرانس» وحده يلهو في أدبه بشيء من الروح العلمي، فقد ألمّ «فولتير» بالعلوم كلها من دون أن يتعمق في أي علم كان. وقد جمع كل هذه العلوم بفضل عبقريته النيرة، ولا شك في أنه كان يقع في الخطأ، وكان يهزأ ببعض العلماء السوفسطائيين، ويزري ببعض الاختراعات، ويسخر من أصداف البحر الملقاة في قمم الجبال، ولا يؤمن بطائفة من آراء «بيكون»، ولكنه أدخل في عالم الثقافة والحضارة في تلك العصور فكرة العلم التي أصبحت صاحبة المقام الأول، وهي اليوم ليست صاحبة هذا المقام، كان «فولتير» يقول: إن مستقبل البشرية متوقف على العلماء، وإن للتجارب رجال الطبيعيات ولعمليات علماء الفلك ولحساب الرياضيين، وزناً لا يقل عن وزن لطائف الأدب، وعلى الرغم من ولعه بالشعر كان يضع «نيوتن» فوق كل شيء، ولقد كان إدراك «فولتير» نظام العلم في العالم عنواناً من أحسن عناوين مجده.

وإذا رجعنا إلى عصر من عصور أدبنا العربي وجدنا أن الأدب لم ينفصل عن العلم، لقد كان الخوض في كل فن من الفنون من لوازم الثقافة في عصر الجاحظ، فقد كان الأدباء أمثال أبي عبيدة والأصمعي وطرائفهما يكتبون في موضوعات شتى، كالحيوان والنبات وغيرهما، فاطلاع الكاتب على علوم من العلوم دون الاقتصار على الأدب وحده كان أمراً لا مندوحة عنه، وقد أشار إلى هذا ابن قتيبة في «أدب الكاتب» فذكر العلوم التي يفتقر إليها الكاتب [illegible] مساحة الأرض وعلم الفلك والحساب، والفقه [illegible]

[illegible] على نحو ما قال «هربرت» [illegible] تتوقف [illegible] الروح العلمي في هذه الأمم، [illegible] شعر شعوراً قوياً بضرورة تبديل تربية الشعوب، وبدعوة المجتمع إلى الثقافة العلمية. وقد احتج «سبنسر» في عصره على امتهان شأن العلم، وجاهد في سبيل إصلاح التربية، وبلغ منه أن قال: إن الفن نفسه، الفن الحقيقي، مبني على العلم، وإن العلم مختبئ تحت الفن، وإن الفن يستلزم بعض مشكلات لا يستطيع أن يعطيها القوة والعمل إلا العلم وحده. وبالغ في هذا الباب فقال: إن العلم نفسه شعر، فإنه يحضر للرجل المثقف ينابيع الأدب الشائق، التي لا يحرزها الجاهل، ويكشف له في مراقبة الطبيعة أسراراً جديدة تحمله على التأمل وعلى الاهتزاز، فالرياضي الحقيقي إنما هو شاعر، أفلا يكون الشعر في قطرة الماء أو في ركام الثلج أو في الصخر المتفتت إلا إذا عرفنا هذه المشاهد كلها تعريفاً فيه أنواع الاستعارات!

دمشق — شفيق جبري

نظرات في الأدب الغربي

ماري وب

أحب شخصية بين قصصيات انجلترا المعاصرات

يحب الإنجليز بلادهم حبا لا يقل عن حب الفرنسيين أو الألمان أو الإيطاليين أو أي قوم آخرين أوطانهم ، ولكن طريقة الإنجليز في التعبير عن ذلك الحب تخالف طريقة سواهم ، فإنهم لا يفيضون كما يفيض الأدب الإيطالي أو الفرنسي مثلا بتمجيد الوطن تمجيداً حربياً ، والتغني بانتصاراته في الحروب ، رغم ما أحرز الإنجليز من نصر في الشرق والغرب ، وفي البر والبحر [illegible] الإنجليزي بالتباهي بالماضي والتفاخر [illegible] كما يتباهى الإيطاليون مثلا بتاريخ الدولة الرومانية ، ولا يخلو الأدب الإنجليزي من ذلك التفخر الحربي أو السياسي أو القومي ولكنه قليل محدود .

إنما يظهر حب الإنجليز لبلادهم ويتجلى في أدبهم على صورة وديعة متواضعة ، هي مع ذلك أعمق شعوراً وأغزر عاطفة وأبعد دلالة ، تلك هي عشقهم لمظاهر الطبيعة الإنجليزية وتصويرهم لمفاتن الريف الإنجليزي ، فالريف الإنجليزي يحظى في الشعر والنثر بجانب عظيم من الاحتفال ، ويحتل منزلة رفيعة ، والطبيعة أوسع أبواب القول في الشعر الإنجليزي ، وإليها يفزع كل شاعر أثقلته هموم الحياة ، أو فاتت آماله ، أو انهارت مثله العليا ، فلم ير غير الطبيعة مفزعاً ، ولا غير وصف مفاتنها عزاء ، ومن أكبر قصصي انجلترا المحدثين ، الذين اتخذوا الريف مسرحاً



ماري وب في صباها

قصصهم دون المدن ، ووشوا قصصهم بدائع أوصاف الطبيعة « ماري وب » التي رسمت أجمل الصور الريفية في مقاطعة شروبشير .

وولدت « ماري وب » في بعض قرى مقاطعة شروبشير على مقربة من حدود ويلز سنة ١٨٨١ ، وقد انحدرت أسرتها من أصل ويلزى ، وكان أبوها طبيبا حسن الحال ، وكان هو وزوجه موضع محبة أهل القرية لأنهما كانا يحسنان به من

حسن الشعر ، وحب الخير ، وعمل البر ، وهي خصال ورثتها عنها ابنتها «مارى ويب» التي كانت تحبها حباً جماً ، كما ورثت عن أبيها حبه الأدب ، فقد كان ينظم الشعر الفكاهي في الأعياد والمهرجانات ، وقلدته ابنته في ذلك ، ولم تزل طفلة لاعبة ، وتلقت علومها في الدار على يد مربية ، ثم في المدرسة ، وكانت مقبلة على الدرس أشد إقبال ، محبة للغات والآداب محبة .

وكانت تحب قصص شكسبير فوق كل ما عداها ، كما قرأت في طفولتها أشعار شاعر مقاطعتها «هاوسمن» المجموعة في ديوان صغير يدعى «غلام شروبشير» ، فكان هذان هما العاملان الأكبران في توجيه شاعريتها . أما في عالم القصة فقد كانت تعجب أشد الإعجاب بقصص معاصرها هاردي ، وقد تأثر كثير من قصصها ، والإعراب من إعجابها أهدت إليه إحدى قصصها بعد استئذانه ، هذا إلى أنها طول حياتها تداوم قراءة الإنجيل ، ... حريص على حسن الصغر لها .

وفيما عدا هذه الدراسة الخصبة الممتعة ، وذلك الوسط البيتي الملائم لحفز الملكات وتنمية أجمل الخصال والميول ، أثرت في مارى الحياة الريفية المحيطة بها أعمق تأثير ، حتى غدت تلك البيئة الريفية في شروبشير مدة حياتها روحاً وجسماً .

كانت مارى فتاة عليلة البنية مرهفة الشعور متوقدة الذكاء مستوفزة النشاط ، وكانت تقضي طفولتها تحت الأشجار والأزهار حباً جماً ، تنهض مبكرة وتخرج إلى الحقول لتجلس في الأعشاب تراقب تفتح البراعم ، وقد ظل هذا الحب للزهور إحدى ميزات قصصها الواضحة ، كما كانت شديدة عطفاً على الحيوان من غنم وبقر ونحل وطيور ، وهذه ميزة أخرى من مزاياها في قصصها ، كما كانت على شدة حيائها محبة للريفيين تتخذ منهم أصدقاء كثيرين ، وقد صورت أصدقاءها منهم في قصصها أدق تصوير . وكانت فيما بعد إذا طافت في دروب القرية مع زائر من زوارها تشير إلى كل شخص من أولئك الريفيين وتخبره بموضعه من قصصها .

ومما زاد مارى رهافة شعور وحباً للطبيعة وعطفاً على الأحياء ، مرض أصابها في صباها فأقعدها عن الحركة وهي التي تشرق نشاطاً وذكاءً ، وظلت طريحة الفراش زمناً طويلاً محرومة من لقاء الناس والخروج والنزهة ، اللهم إلا الجلوس في النافذة في الأصباح الصاحية ، والتطلع إلى تلاع شروبشير الجميلة ووديانها وأشجارها وحقولها الممتدة إلى الأفق البعيد .

في هذه الوحدة اشتد شعور الفتاة تيقظاً وفكرها تفتحاً وحبها بالطبيعة رسوخاً ، فبدأت في عزلتها هذه ... تنظم الشعر وتكتب المقالات تكون ... من المدة ، ولم تكن قد التفتت إلى القصة ... فكان من أوائل ما نشرت ، ... «ينبوع السرور» ولم تطلعه المقالة ... ، وخلاصة فلسفتها تلك أن الامتزاج بالطبيعة هو سبيل السعادة الصحيحة ، وهذا أيضاً جماع الفلسفة التي يمكن استخلاصها من قصائدها . وقد بلغت بعض تلك القصائد درجة عالية من الكمال ، حتى إن الشاعر دلامار استأذنها في نشر اثنتين منها أو ثلاث في ديوان مختار من الشعر الحديث أصدره .

ولم تكن مارى في طفولتها وصباها — رغم ميلها إلى الأدب — بالمعتزلة عن أترابها أو المتجافية عن أسباب حبورهم ، بل كانت تشاركهم بنشاطها المتدفق في ألعابهم ومناسبات حفلاتهم ، وكثيراً ما قامت بتنظيم حفلات التمثيل والاستعراض بين إخوتها الخمسة الذين كانوا يصغرونها ، كما كانت تدور في عيد الميلاد توزع الهدايا على أطفال الجيرة ، وكما أنها بعد انقطاعها عن المدرسة تولت

تعلم إخوتها حتى أقعدتها العلة عن ذلك .

ولما بلغت مارى الحادية والثلاثين قابلت شاباً من أبناء شروبشر قد نال درجته الجامعية واحترف التدريس وتوثق بينهما الحب وتزوجا ، وظلا مقيمين فى نفس المقاطعة التى لم تكن مارى تطيق فراقها وإن تنقل أبواها فى سفرهما بين بلد من قراها . وقضت مارى فى حياتها الزوجية التى دامت خمس عشرة سنة ، أوفر سعادة ، وإلى زوجها أهدت أول رواياتها وآخرها . وعقب زواجها مباشرة التفتت إلى القصة ، ولم تكن قد مالت إليها بعد ، وإنما كانت منصرفة إلى الشعر تقرضه من حين إلى آخر ، وكأن نفسها القلقة قد هدأت واستقرت بالزواج والتفتت إلى الماضى فى هدوء ووثوق تستوعب حقائقه وتستثمر كنوزه .

وكانت حياتها الزوجية هادئة ساكنة خلواً من التقلبات ، إلا فترة ضيق مادى [illegible] الحرب الكبرى : فقد شعرت مارى [illegible] ثقل ما شعر به كل امرئ رقيق الشعور [illegible] واستبشاع ، وقد زاد مارى حرجاً بها أن ثلاثة من إخوتها انخرطوا فى سلكها [illegible] ، كما أصابت زوجها عسر مالى ، حتى اضطرا إلى التحول من مسكنهما الجميل إلى آخر متواضع ، وأخيراً اضطرت مارى إلى اطراح الفن جانباً ، ولم يكن قد عاد عليها بعد بأدنى ربح مالى ، ومعاونة زوجها فى كسب قوتهما ، فكانا ينهضان مبكرين كل صباح فيجمعان زهور حديقتهما وفاكهتها وتحملها مارى مسافة أميال إلى سوق الجهة ، فتتولى بيعها سحابة يومها وتعود فى المساء لم تكسب أكثر من شلنات تعد على الأصابع . ولكنها تعود مغتبطة راضية : مغتبطة بشعورها بلذة العمل من أجل الحياة ، مغتبطة بتجاربها العملية فى تلك التجارة . تلك التجارب التى خلدتها فى قصيدتها « يوم السوق » واتخذت منها مادة لبعض قصصها .

وسرعان ما تحسنت حالها ، حتى استطاعا أن يبتنيا بيتاً جميلاً سمياه « كوخ الينبوع » . وفيما عدا تلك الشدة العارضة كانت حياة مارى كما تقدم القول رخية وادعة ، فتأتى لها أن تتوافر على الكتابة كما تحب ، وقد كانت إذا التفتت إليها أكبت عليها بشكل عجيب : تكتب فى الدار وفى القطار وحيثما واتتها الفرصة ، وكانت أفكارها تسابق قلمها ، وكانت كلما أسرعت فى الكتابة كانت كتابتها أجود ، فاستطاعت فى سنوات معدودة أن تخرج عدداً طيباً من القصص المحكمة ، كل منها تتقدم على سابقتها جودة وإحكاماً باطراد .

تدور قصص « مارى وب » جميعاً فى الريف فى إقليم شروبشر بين المناظر الساحرة والطبيعة الممتازة ، وتصور [illegible] التى درجت فيها مارى منذ نعومتها والأشخاص الذين عرفتهم مارى منذ صغرها ، وتتماثل قصصها جميعاً فى الهيكل [illegible] تصميم متدرج ، فيها زوجان من [illegible] طاهر عفيف مستقيم حسن النية ، وبين الزوج الشرير [illegible] غير مخلص من أحد الطرفين أو كليهما ، ينتهى فى النهاية إلى الشر ، وتطلع المؤلفة من قناة الحب التى السليم النقى ، من الخصال ما كانت تجده فى نفسها فى صدر شبابها من الإخلاص والنقاء وقصد الخير وعمل الخير .

لم يلبث الأشخاص فى رواياتها كما هم لم يتجددوا وإنما نراهم وقد تطوروا : زادوا فى مرحلة الكتابة على مر الزمن وضوحاً ، وزادت شخصياتهم قوة ، وزادت الكتابة مضاء فى تصويرهم وتحليلهم .

وصفحات كل قصة مليئة بالوصف الطبيعى الممتع ، ومن القصصيين من يبدأ الفصل من فصول قصته بوصف المنظر الذى سيكون مسرحاً للوقائع ، ثم يغفل الطبيعة بعد ذلك إغفالاً تاماً ، ويتوافر على سير الحوادث . أما مارى وب «

فتمزج وصف الطبيعة بوصف الأشخاص بذكر الحوادث بسرد المحادثات مزجاً طبيعياً شائقاً ، ولا تبرح صورها الطبيعية تتوالى فلا تنفد . ولا غرو فإنما كانت «ماري وب» تصف ما شبت وسطه من المناظر وما صحبته طول حياتها من الظواهر وما استوعبته في أيام علتها ووحدتها من المشاعر . ومن دقيق تلك المشاعر وعميق تلك التأملات قولها في رائحة القمح : «أي رائحة تماثلها ؟ إن فيها لما يفوق جميع الروائح : ففيها الصيف وفيها الصقيع ، وفيها الندى ، وكأن فيها قلب الحجر الذي امتصه القمح في سنابله الخضراء ، وفيها الخبز والحياة للإنسان والحيوان» .

وكما تفيض قصص «ماري وب» حباً للنبات والزهر تسيل حدباً على الحيوان والطير ، لا تكاد تخلو من ذكر الحيوان في قصصها والرفق به والتوجع لمظاهر قسوة الناس عليه . والعطف على الحيوان من أظهر مزايا الأدب الإنجليزي لاسيما الحديث منه . والشعب الإنجليزي معروف بنفوره للتكلف والتعاظم ، وكثير من أدبائه عرفوا بعطفهم الشديد على تلك العجماوات ؛ يروى عن القصصي ستيفنسون أنه مر برجل غليظ القلب يضرب كلبه ، فاعترض عليه معنفاً ، فاستنكر الرجل تدخله بينه وبين كلبه ، فقال ستيفنسون : «ليس هذا كلبك إنما هو كلب الله ، وأنا أتسلم حمايته» !

لا تكاد «ماري وب» تبدأ أولى قصصها «السهم الذهبي» وتأخذ في وصف أشخاصها حتى تعرض لشؤون الحيوان ، فتذكر كيف أن أحد أشخاص الرواية ، وهو رجل فظ غليظ ، يلقي القط حياً بعيداً ، فيطلب إليه الآخر ألا يشفق عليها قائلاً : إن موت القط له أحب إليه من العثور على كنز ثمين . ولا تكاد تمضي صفحة بعد ذلك حتى نرى امرأة تحرث من حبها تلك البهائم وثقة أنها لا تفرق بين إنجابها ولداً وبين إحضارها إلى الوجود عجلاً وديعاً ، قائلة إن لدى تلك العجماوات من المودة والحنان ما يعوز كثيراً من الآدميين !

وفي شتى قصصها تذكر «ماري وب» كيف أن بعض القرويين تتوشج العلاقة بينه وبين نحله ، فلا يبرم أمراً ولا يحدث في الدار جديد ، إلا قصد من فوره إلى النحل فأخبره ، وكيف يخبر الخادم أمراً يسيئه ، ويكتم أمراً آخر . والحق أن علاقة الرجل أو المرأة بالحيوان أو الطير هي عند «ماري وب» مشخص مهم من مشخصات خلقه ، وهي تصف أرذل قصصها عادة بالقسوة على تلك المخلوقات البكم ، وتصف شخصياتها المحبوبة بالعطف على الحيوان ، ومحبة الحيوان لها ، بل يرتفع ثعلب صغير في قصة «عادت إلى الثرى» إلى منزلة شخص مهم من أشخاص القصة ، ويلعب في توجيه حوادث القصة دوراً خطيراً ، إذ تستأنسه بطلة القصة منذ حداثته ، وتلقيها محاولتها حمايته من كلاب الصيد إلى حتفها !

ومع أن صيد الطير والحيوان ما زالت قائمة لدى كثير من أبناء العلية ومتعقبيها ، ولا ينفك أولئك الأدباء يصورون تلك الأعمال الوحشية في كتبهم صوراً دامية منفرة . وقد كانت ماري وب تحب أباها أجزل الحب ، ولا تنكر من أعماله شيئاً إلا اقتناءه كلاب الصيد . وفي قصة «عادت إلى الثرى» هذه صورت ولائم الصيد تصويراً بشعاً عفت به عليها التي كانت تتميز به حفلات العادة المضحية !

وكانت «ماري وب» تولي الإنسان مثل ما تولي النبات والحيوان من عطف وحنان ، وتأسى لشقائه أشد الأسى . كانت على حبها للطبيعة والتماسها ما فيها من مظاهر الجمال ، لا تتغافل عما في الحياة من مظاهر القسوة ، ومناحي النقص وأسباب الشقاء ، فهي تقول في بعض كتاباتها : «أيتها الدنيا القذرة السوداء ذات الخضرة العجيبة ، متى تنتهين وتنطفئين ؟» ، وهي تصور مآسي الحياة التي تنصب

على الخلق بالإجرام : ففي إحدى قصصها تصور فتاة كسيحة مشوهة تحب رجلاً تشقى من أجله أشد الشقاء ، وهو سادر بإثمه ، وهي لا تستطيع النطق باسمه ، بله الإعراب عن حبها له ، وفي كبرى قصصها « بريشاس بين » تصور بطلتها « بروادنس سارن » فتاة مشوهة لا أمل لها في السيطرة على قلوب الشبان ، وحيالها منافسة لعوب وضيئة الوجه ساحرة القسمات.

في هذه القصة قصة « بريشاس بين » بلغت « ماري وب » أوج نضجها الفني ، وبلغ من توفقها في فنها أن هجرت الحيل الماهر ، وجعلت عصر تلك القصة العهد التالي للحروب النابليونية ، بيد أن عهد الصفاء الذي لقيت به منذ زواجها كان قد آذن بالذهاب ، إذ عاودتها العلة التي شكت منها كثيراً في صباها ، حتى أثار الطبيب ضرورة تغييرها الناظر ، ونصح بانتقالها إلى لندن حيناً . وفي مفارقتها موطنها شروبشر لم ترعها مالقة الحنين إليه ، وزاد حنقها تحكم إعراض الجمهور القارئ عنها ، ومن جهل النقاد الذين تناولوا كتبها .

كانت « ماري وب » منذ ظهرت قصصها الأولى قد نالت إعجاب زملائها من الأدباء العارفين ، وأتاها كتاب ثناء خالص كريم من مستر ستانلي بلدوين رئيس وزراء انجلترا في ذلك الحين ، قال فيه مطرياً قصتها الكبرى « بريشاس بين » :

« عزيزتي مسز وب : أرجو ألا ترى في عملي تطفلاً إذا أخبرتك عن عظيم الإعجاب الذي به قرأت « بريشاس بين » ، فقد قضى أهلي قروناً في شروبشر قبل انتقالهم إلى ورسترشير ، وقضيت أيامي الأولى في موطن الجدود ؛ وفي كتابك يخيل إلي أني أسمع مرة أخرى تلك اللهجة وتلك العبارات التي كانت محيطة بي في مهدي ، ولم أستمتع بكتاب كل هذا الاستمتاع منذ سنين ، وقد دفعته إلى أحد كتابي ، فقرأته في عيد الميلاد فشهد من خلال كلابي موطني ، فشكراً لك على ذلك ألف شكر ... وسأظل دائماً المخلص »

« ستانلي بلدوين »

وليست تقتصر قيمة هذا الكتاب على مكانة كاتبه السياسية ، بل لها قيمته الأدبية الكبرى ، لأن ذلك الوزير قد عرف بمحبته للأدب ، وبصره بالنقد ، مثلما عرف بالحنكة السياسية .

فازت « ماري وب » بالتقدير من العارفين ، ولكن ظل يهمها إعراض الجمهور عن كتبها التي لم يكن يباع منها ما يتجاوز ألف نسخة ، وظل يحنقها ما يقابل جهة النقاد كتابتها من النقد السطحي التام عن التقلاء البعيد عن الإنصاف ، فتكالب الداء عليها حتى عجزت عن إتمام قصتها الثانية التي كانت اختارت لها عهداً أبعد في القدم ، هو العهد التالي للفتح النورمندي لانجلترا ، وكانت وعدت مستر بلدوين بأن يهدى إليه من رسالته نسخة منها ... !

رحلت العلة ماري ، وكان لسوء الاستقبال الذي نالته روايتها « بريشاس بين » أثر في ذلك ، ومن قبلها أسرعت بالشاعر كيتس إلى قبره حملات النقاد المغرضين عليه ، فقضت « ماري وب » نحبها في سنة ١٩٢٧ في العام التالي لظهور قصتها تلك ، ولم تتجاوز ستاً وأربعين سنة ، وما زالت في أوج نضجها الفني ، وكان ناشرها قد أشار عليها باستغلال كتاب رئيس الوزراء في الإعلان عن كتبها فأبت إباء تاماً ، فلما ماتت قام مستر بلدوين في بعض الاجتماعات الأدبية منوهاً بذكرها ، منددا بالإهمال الذي قوبلت به في حياتها ، فكان ذلك كافياً لتكتسح الآلة ، وما لبثت « ماري وب » أن حازت في مماتها أضعاف الشهرة التي كانت تحلم بها في حياتها !

فخري أبو السعود

من أعلام المصورين في الإسلام :

يحيى بن محمود الواسطى

مصور مقامات الحريرى

بقلم إبراهيم جمعة

في ميدان الفن كما في ميدان العلم ، كان مسيحيو الكنيسة الشرقية من النساطرة والسريان واليعاقبة أساتذة للعرب . والحق أنه لم يكن ليقدر للعرب أن يلموا بما خلف اليونان من علم ، والبيزنطيون من فن ، بغير وساطة هؤلاء .

وهذه الوساطة على جانب من الأهمية والقيمة ، فقد وقف هؤلاء المسيحيون جهودهم [illegible] اليونانية ، والمساومة عليها بأى ثمن . [illegible] وفن ، بقدر ما كان العرب الفاتحون [illegible] في آى كنوز الفكر يحصونها جمع القراءة ، ويؤلفون من أحسنها الكتاب الخاصة ، وينقلون منها إلى لغة السريان ولغة العرب ، ذلك النقل الذى أدى بدوره إلى تخريج المتعصر العربى الفاتح بهذه الثروة العلمية .

وأفاد العرب من هؤلاء فنا كما أفادوا علما ، ونبغ منهم في ميدان الفنون فريق حذق التصوير وأجاد فيه بقدر ما سمحت ظروف العرب .

وإلى هذا الفريق تدين بعض كتب الأدب والكيمياء ، والحيل والطب بالتوضيح الذى أكسبها جمالا فوق جمالها وزادها وضوحا على وضوح . غير أنه مما يؤسف له أن تعصف أحداث الزمن بهذه المخطوطات القيمة في الطب والكيمياء والحيل والأدب وغيرها ، وبما دفع هؤلاء المصورون فيها من الصور ، فتباعد بين أجزاء المخطوط الواحد ، وتجعل من كل ورقة من أوراقه ، أو صورة من صوره أو مجموعة من عشرة أو ثلاث ، تحفة ثمينة يتسابق إلى إحرازها كثيرون من هواة الفن ، فلا تخلف من جليلهم [illegible] تشويها وإبرازها حيث وجدت .

ومصورنا الذى سنتناوله بالكلام في هذا المقال ، هو [illegible] بن الحسن الواسطى مصور مقامات [illegible] هذه المقامات كلها بالتصوير ، [illegible] وصلنا من تصويرها النسخة المؤرخة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م . وهى النسخة التى كان يملكها العلامة (شيفر) ثم أهداها إلى المكتبة الأهلية بباريس .

نشأ يحيى بن محمود هذا في (واسط) بين البصرة والكوفة ، في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وفيها تعلم التصوير وحذقه في قدر ما يحذق العرب هذا الفن . واشتهرت واسط من بين مراكز التصوير في العراق بطريقة معينة ، جعلت من مصوريها مدرسة خاصة اشتهرت بالرسم (بالفحم) ، بالمداد الأسود وبلغت فيه شأوا جعلتها تشتهر به صور الواسطى . وطريقتهم في الحصول على هذا المداد الأسود أنهم يحرقون ألياف الكتان ثم تخلط بنوع من الزيت النباتى (زيت الخروع) . ومن هذا النوع من اللون كانت ترسم صور مدرسة واسط ، وكانت

التحسينات الأخيرة في الصورة ذات الألوان في حاجة إلى هذا النوع من الفن لتوضيح التفاصيل التي يكون اللون قد طغى عليها ، أو التي يحتاج الوجه إليها لبيان تقاطيعه ، أو تتطلبها الملابس لتمثيل طياتها وزخرفها . وهكذا استحدثت مدرسة واسعة (الفن) بما كان (الفرنسيون) يشتغلون فيه . وعرفت بها من ذلك المدارس التصويرية العراقية .

وكان فراغ الواسطي من رسم صور مقامات الحريري في رمضان سنة ٦٣٤ هـ . وعلى الرغم مما اعترى صور الواسطي من عوامل التلف ، وما لحق بها بسبب محاولة إصلاح ما تلف منها ، من التشويه والمسخ ، فهي لا تزال وثيقة [illegible] وتاريخ الفن العراقي التصويري [illegible]



[illegible] السروجي في موقف من مواقف الوعظ

[illegible] كالعصر الذي عاش فيه الواسطي ، [illegible] صور مقامات الحريري التي خطها الواسطي [illegible] قطعة نسيج « بايو »(١) التي [illegible] عليها من صور ، هي لوحة طريفة من الحياة الاجتماعية الانجليزية في العصور الوسطى .

وصور الواسطي المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس — وهي تربو على مائة صورة — تسجيل رائع من الحياة الاجتماعية العربية في العصور الوسطى في الشرق الأدنى ، فهي تصور الحياة العربية — في مسجدها وريفها وسفنها وحربها ، وهي في مجموعها تمثل حوادث بطل المقامات « أبي زيد السروجي » وتوضح أحواله ، و[illegible] يظهر أبو زيد متميزاً عن أشخاص الصورة بموقفه الذي يسترعي الالتفات ، فهو إما متنكر في زي امرأة عجوز ، أو خطيب يعظ الناس في أمر من أمورهم ، أو غير ذلك من المواقف الفريدة التي تتضح فيها شخصيته كبطل المقامة ، ولذلك مدرسة



جمع من الناس [illegible] ويضربون في الأبواق ويدقون الطبول ويرفعون البنود ، ويلاحظ في هذه الصورة مقدرة الواسطي على تصوير الجموع وتنسيق الصورة بالأشخاص

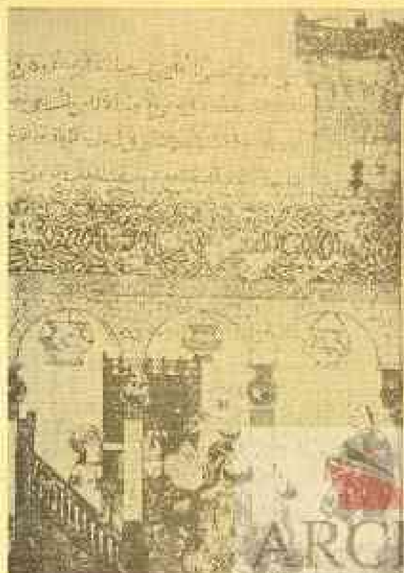
(١) Bayeux قطعة من نسيج الكتان الطويل مطرزة بالصوف الملون ، توضح حوادث الفتح النورماندي لانجلترا من صناعة أواخر القرن الحادي عشر المحفوظة بمتحف بايو .

واستطاع مع ذلك مصورو مدارس التصوير العربية في العراق ، في إظهار الملامح السامية في سحن الأشخاص ، من سمرة الوجه واستطالته وسواد الشعر واستقامة الأعين وطول الأنف واعتداله ، إلى غير ذلك من الصفات التي يختص بها الذوق العربي ، من إطلاق اللحى ، إلى كثرة العمامة واتساع الملابس وزخرفتها بالفروع النباتية ، والأشرطة الزخرفية على الأكمام الواسعة .

ووقعت هذه المدرسة مثل مثيلاتها تحت تأثير البيزنطيين ، فأخذت عن التصوير البيزنطي « الهالة » التي تحيط برءوس الأشخاص ذوي الأهمية الخاصة في الصورة ، كالأمير أو الخطيب أو الواعظ ، وهي في الفن المسيحي علامة على التقديس ، كما هو معروف في صور السيد المسيح والسيدة مريم وصور القديسين .

ويرجح أن يكون العرب قد نقلوا صوراً ... من البيزنطيين أول الأمر عن طريق « ... ... » في بعض الأحيان في تكوينها ، ... نقلة لبعض الصور الدينية المسيحية ، إلا ... مسحة عربية ، فأضافوا إليها العمائم واللحى والثياب العباسية ، ولم يحجب ذلك من موضوعها المسيحي ، ولا غبار على التشابه إلى هو محاكي أول الأمر ثم استقلوا فيه بالمرتبة والزمان ؟ هكذا كانت الحال مع العرب أول اشتغالهم بالتصوير ، لأن أساتذتهم فيه كانوا من المسيحيين الذين يصعب أن يتخلوا عن تقاليدهم ؟ وبسبب هذا الأثر بالفن التصويري المسيحي ، نسب بعض مؤرخي الفنون صور « الواسطي » إلى تصوير بيزنطي ، لما فيها من الدقة

(البقية في صفحة ٢٣)



... في ... هذه الصورة بما فيها من اسم « المستنصر العباسي » ... من صور الواسطي ... النسخة من المقامات



قطيع من الجمال ... بالعرب من مخطوطات ... ويرجح أن يكون « ... » هو أبو زيد السروجي في ... المعروف

قاذف القرص

Le Discobole

للمثال الإغريقي « ميرون »

بقلم الدكتور زكي محمد حسن

كان قذف القرص من ضروب الرياضة المفضلة التي عني بها الإغريق القدماء . فكان اللاعب أو المتسابق يقف في مساحة محدودة بخطوط من الأمام ومن الجانبين ، ويعمل على أن يقذف القرص المعدني إلى أبعد حد ممكن . وكان قطر هذا القرص يختلف من ست إلى إحدى عشرة بوصة ، ووزنه من ثلاثة أرطال إلى تسعة . وكان اللاعب يمسك القرص ويستعد لقذفه نحو [illegible] الأمام . ولا يزال هذا النوع من [illegible] اليوم . وقد بلغ أقصى بعد وصل إليه المتسابقون في الألعاب الأولمبية الأخيرة نحو ثلاثة وخمسين مترا .

وهناك قطعة فنية خالدة من آيات النحت الإغريقي ، تمثل قاذف القرص ، يهز وزنه بيده اليمنى ، وجسمه مائل إلى الأمام ، ويحرك ثقل ذراعه اليسرى ، (انظر الصورة في الصفحة المواجهة) . وهي من عمل المثال « ميرون » Myron عميد المثالين الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الذي نبغ فيه نحو زميليه بوليكليت Polyclète ، وفيدياس Phidias .

وقد عرف عن ميرون إبداعه في تماثيل الرياضيين ، ودقة تصوير عضلات الجسم الإنساني ، وإيثاره مواقف الحركة السريعة ، وبراعته في تماثيل الحيوانات . وقد كتب المؤرخون عن تمثال « البقرة » الذي كان من أشهر آثاره الفنية ، ولكن هذا التمثال فقد ، وأصبح أبدع ما نعرفه لميرون هو تمثال « قاذف القرص » . وهو من أجمل التحف الفنية الإغريقية وأبدعها ، مع أننا لا نعرفه إلا بوساطة نماذج نقلت عنه . فقد كانت تماثيل ميرون من البرونز ، وجل ما وصل إلينا منها نماذج منقولة من المرمر والبرونز ، محفوظة في المتاحف والمجموعات الأثرية المختلفة ، ولا سيما روما ولندن وباريس .

وإنك لتنظر إلى هذا التمثال فلا يسعك إلا الإعجاب بما فيه من ابتكار فني ، بالرغم من صعوبة تركيب الشكل . فالحركة والحياة تتمشيان معه ، مع الاتزان والهدوء ، وإبداع النسب . وقد تخير الفنان اللحظة التي يتأهب فيها الجسم لمساعدة الحركة التي تقوم بها الذراع اليمنى . وفضلا عن ذلك فإن هذه التحفة مثال جيد لتوفيق الفنان في تكييف [illegible] ، واستطاعته إيجاد بعض خطوط أسود وتبرز ، وتؤدي إلى الوضوح ، وتظهر الظل من رؤية التمثال ، [illegible] من أجزائه . فإنك تستطيع أن تتم [illegible] التمثال كلها ، فتسير العين كالسهم [illegible] ، منحنية الذراع اليمنى ، إلى الكتفين ، فالذراع اليسرى ، فالساق اليسرى والقدم . وثمة ميزات أخرى ، فالكتفان العريضتان ، والصدر المائل ، والعضلات القوية ، كل هذا يكسب التمثال حياة وقوة ، ويدل على دقة الملاحظة ، وصدق تصوير الطبيعة .

وإن كان هناك ما يؤخذ على هذه التحفة الفنية ، ويؤيد قرب عهدها بالأساليب الفنية القديمة في فن النحت الإغريقي ، فهو أننا لا نرى على وجه اللاعب كل الأثر المنتظر للحركة العنيفة التي يتأهب جسمه للقيام بها ، وقد تخلص الفنان في جسم التمثال من كل القيود الفنية القديمة ، ولكن التعبير في وجه اللاعب لا يزال ضعيفا ومتأثرا بما كان في الفن الإغريقي القديم من تصوير الرأس بدون أي تعبير ظاهر يمكننا منه أن نستنبط الحالة النفسية أو الحركة التي يقوم بها الجسم .

زكي محمد حسن

الأفنــــدى !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان ، كما صارت هذه الكلمة فى مصطلح الزمان !

وقبل كل شىء ، لعلك تعرف أن كلمة (أفندى) معناها السيد ، وهى من ألفاظ التشريف التى انحدرت إلينا من سادتنا القدماء ، أعنى الأتراك . وعلى الرغم من أنا خلعناها ، أو خلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفرنا باستقلالنا ، فإن أكثر ألقاب التشريف فى بلادنا ما برحت تركية : (فأفندى) تركية ، و(بك) تركية ، و(باشا) تركية أيضا !

وكل ما صنعنا فى هذا الباب [illegible] سيادة تركيا ، أننا أصرفنا ، فى توجيه الخطاب [illegible] الألقاب إلى النحو العربى ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركى وابن تركى . فبدلا من أنه كان يقال مثلا : « عزتلو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلا من أنه كان يقال : « سعادتلو أفندم حضرتلرى » ، أصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن النحو الأول بلقب (بك) ، والثانية بلقب (باشا) .

أما (أفندى) فقد علمت أن معناها السيد ، وأما الياء التى توصل بها أحيانا فهى أداة الإضافة للمتكلم ، (فأفندم) معناها (سيدى) . ولهذا كان ولى الأمر إذا وجه الخطاب إلى رئيس (النظار) ، أو إلى من يقوم مقامه ، فى المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقا : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، بالرغم من أنه أجل محلا من أن تدخل فى سيادة أحد على أى وجه من الوجوه .

ونعود إلى كلمة (أفندى) ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضنون به أعظم الضن ، ويعلون قدرها أيما إعلاء ، وذلك على العكس من كلمة (بك) ، فإن كل رجل هناك يكاد يكون (بيك) ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياء ، فذلك هو النطق الصحيح . أما (أفندى) فكانت لقب ولى عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الإسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الإسلام .

[illegible] قاضى القضاة فى مصر لا يتولاه [illegible] السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه : ([illegible] أفندى) ، وقد لصق العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضا ، وأعنى بالمصريين القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصورا فى دائرة هذا القضاء . ولا أدرى أبقيت منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى عليه هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان يدعى المخاطب فى درج الحديث (يا أفندى) ، ولكن (أفندى) مطلقة لا تكون ، كما أسلفت ، إلا للأمثال من كانوا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما فى مصر ، وأعنى فى العصر الذى شهدنا أوائله ، فإن لقب (أفندى) ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الإجلال غير يسير ، فهو فى الغالب الكثير لقب الموظف فى الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكومى فى تلك الأيام !! لقد كان هذا (الأفندى)

موضع إجلال أهل الحي وإكبارهم . وكان أكثرهم يعود من (الديوان) وقد رشق قلم (الجندا) رشقة أفقية في أعلى أذنه اليمنى أدرك الناس ما عرفت من الأمر . وما فشى في حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إلا وشأنه أن يقضي في مصالحهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشي مشمولاً متأنيا ، ذاتي نظرات الاحترام والإعجاب .

ولم يكن حي من أحياء القاهرة يخلو رقعة الكبيرة من بيت (ست أم الأفندي) ، وبيت (ست أم الأفندي) هذا كان شرعة الزائرات ، ومثابة القاصدات . إليه يحج نساء الحي ، وله يطفن ،

لا يرحل الناس إلا نحو حجرته

كالبيت يفضي إليه ملتقى السبل

وكان نساء البيوت المجاورة [illegible] فإذا استعرت سيدة من أحد المنازل ، وكنت [illegible] أم الأفندي) ، فتقول لها مثلا [illegible] أم الأفندي) على يمينك ، ثم انعطفي في أول [illegible] يسارك ، وعدّي من السادس بيتين ، والثالث هو البيت الذي تطلبين .

ولقد كان هناك أيضا بيت (ست أم البك) ، على أن هذه البيوت كانت نادرة جدا ، بحيث لا يقع في الحي كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فإني أزعم ألا يميل بك الظن إلى أن (ست أم البك) كانت كذلك لأن ابنها (البك) موظف في الحكومة كابن (ست أم الأفندي) . العفو ! العفو ! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة (البكوية) في الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ حسبه أن يسمى (سعادته) بين الأحياء ، وإن ضريحه السلطوي عالي وله ! (فست أم البك) إذن لم تكن أم موظف ،

ولكن كانت في الغالب مرضعة لواحد من أولاد (الذوات) !

وإني لا أدع هنا توضيح كلمة (أفندي) من جهة اللفظ ، أذكر لك ما رُوي لي ، من أنه من نحو خمسين سنة أراد بعضهم أن يشتري في حي الحسين ، رضي الله عنه ، (قهوة) فخمة مصرية (موزونة) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، لم يجد أكرم ، ولا أعطر ، ولا أظرف من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجلي (قهوة أفندية) !

* * *

وبعد ، فهذه بعض الآثار التي كان لها لقب (أفندي) في الزمن الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شر الغوائل ، [illegible] من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ عليك من [illegible]

[illegible] أصبح يطلقها موظف أو طالب أو فتى [illegible] أو شاب تجري عليه وظيفة من وقف ! فإذا دعوت أحدهم (الأفندي) تجهم لك ، وامتلأ ما بين جنبيه ألما وغضبا . وربما اتهمك من القول أو الإشارة عما يسوؤك . فإذا هو قبلها منك لسائلك ولموضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيغ !

لقد أضحى الجميع يتداعون بلقب (البك) ، صغارهم وكبارهم في هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا ولكني شأنا فيه شأن إخواننا الأتراك .

لقب (الأفندي) التي ذلت في هذا العصر وهانت ، ولم يبق لها من أمل تعيش عليه إلا في جهات الحجاب والسعاة في الدواوين ، فهم الذين يرضونها ، ويتعلقون بها ، ويسترحمون إليها دون سائر العارفين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت (عسكري الداورية) ، وهل

يستطيع حوذى من أى صنف، أو بائع من هؤلاء المرتقين بأبدانهم، أو نحو هؤلاء ممن يرجون حظوة جنيه القرش، ألا يدعوك يا سكرتى، أو يا خواجه؟ إنهم جميعاً ليدعونه (يا أفندى). وكثيراً ما تكون هذه الدعوة الهنية سبباً في الإنفاق، أو التلطف في القضاء!

أرأيت كيف صحت العبارة العامية في هذه الكلمة:

«يقطع من هنا ويوصل هنا»!

***

ولا أرى، قبل أن أختم هذه الكلمة، بدًّا من الإشارة إلى كلمة أخرى، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب، فأصبحت لأصحاب المناصب أحب الألقاب.

لا أدرى إن كنت تدرى أن [illegible] الشريف كان تجرى صفة على [illegible] (بتشديد الياء). وهذه لأصغر طبقات الموظفين: فرفعتلو، فعزتلو، فسعادتلو، فعطوفتلو، فدولتلو. وبجانبها في الولاة: صاحب الحرمة، فصاحب الرفعة، فصاحب العزة الخ.

فترى أن هذه (الرجعة) قد طارت من هذا المكان، وحلقت حتى أصبحت أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان.

أكنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد، ومنها ما يشقى ومنها ما يسعد، (وكذلك الدهر حالاً بعد حال). ولله الأمر من قبل ومن بعد.

عبد العزيز البشرى

يحيى بن محمود الواسطى

(تتمة المنشور في العدد ١٢٩)

من ناحية، بصدق تمثيلها للطبيعة والحياة الواقعية، ولأن تكوينها أكثر الشبه بتكوين الصور المسيحية، ولكن الدقة البادية فيها، وأسلوبها الفنى خلال من السير نسبتها إلى فنان بغدادي. وقد قطع مؤرخو الفن عامة بأن صور المكتبة الأهلية بباريس التي تحلى مخطوط مقامات الحريرى، إنما هى من صنع ابن الحسن الواسطى المصور، وأن ما فيها من دقة في التخطيط، وجمال في اللون رفع اسم الواسطى عالياً بين رجال التصوير في بواكير العصور الإسلامية، وجعل منه زعيماً للمدرسة واسط.

وهذه الصور بالغة الدلالة على مقدرة الحس العربى [illegible] تصوير الحيوان والحى والجماد، وتمثيل الجميع تمثيلاً ينطق [illegible] الحياة. وتتجلى في صور الواسطى ميول ظاهر [illegible] ولكنه حسنة تمثل تقول [illegible] يجب ما يكاد ينبعث من الصورة [illegible] نتيجة لهذا الحشد والازدحام، وهو عين المعنى الذي قصد إليه المصور بالإشك.

وتمتاز هذه المدرسة التي مثلها الواسطى بمقدرة خاصة في تصوير الحركات ومحتوياتها، وبتحقيق الشخصية الفردية، فلكل وجه من الوجوه الآدمية التي تظهر في صورها تمثل شخصاً معيناً. يضاف إلى ذلك أنها بدأت بتحطيم رسوم السابقين على ما كان مألوفاً من مجرد تصوير الأشخاص، وتلك محاولة فنية قدر لها أن تبلغ غاية إتقانها في فارس على يد بهزاد وقاسم على.

وكما استعارت هذه المدرسة من البيزنطيين «موضوعاتها»، كذلك أخذت عنهم طريقتها في التلوين، ولكنها اصطنعت لنفسها أسلوباً خاصاً في الرسم عرفت به وتميزت عن سواها.

إبراهيم جمعة
دبلوم معهد الدراسات العليا للآثار الإسلامية
بجامعة فؤاد الأول

من أحسن ما يروى

دراسة واختيار

للأستاذ أحمد الزين

البحتري يصف الحرب التي وقعت بين بني تغلب، ويشكر المتوكل على الله الخليفة العباسي على الصلح الذي عقده بينهم على يد وزيره الفتح بن خاقان، فتلمس يوم الفرلي، واطفأ نار فتنة ثارت تورى بتلك القبيلة العظيمة:

وهي من عيون الشعر التصويري الذي جمع إلى [illegible] اللفظ وروعة المعنى جمال التصوير ودقته ووضوحه، وأثره البالغ في النفس.

فقد جمع الشاعر في هذه القصيدة [illegible] صور ملأى بالحياة والعزة.

(١) صور الشاعر في أبيات ثلاثة منها، وهي الخامس والسادس والسابع آثار الحرب الأهلية في الشعب الواحد، ومن تمزيق شمله، وتشتيت جمعه وتبديله من الأمن خوفاً ومن الأنس وحشة، ومن مجالسه التي كانت تعقد للهو يتساقون فيها كؤوس الراح، كذلك للحرب يتساقون فيها كؤوس الموت.

(٢) صور الشاعر كذلك في أربعة أبيات تليها بعض الحمية الحربية والعصبية الجاهلية في نفوس المتحاربين، وكيف تدفعهم الأحقاد والأضغان وحب الأخذ بالثأر إلى التفاني في سبيل الموت، والتمادي في الحرب، واللجاجة في الخصام، والضراوة بالدماء.

(٣) وانتقل الشاعر بعد ذلك إلى تصوير التنازع بين عاطفتين متناقضتين: عاطفة القربى التي تأمر بالصلة والمودة، وعاطفة التعصب للعزة القومية التي تغري بالعداوة والحرب، وقد وقف الشاعر بين هاتين العاطفتين موقف الواصف المصور، لا موقف الحاكم المتحيز.

(٤) وصف الشاعر موقف الخليفة ووزيره الفتح بن خاقان، وأثر وساطتهما في إقرار السلام والأمن، وإدخال الطمأنينة على النفوس المضطربة الجامحة، ورجوع المتحاربين إلى الخليفة متنصلين من ذنوب اقترفوها، مستحيين من [illegible]، متخلين من الأوشاب تحت سيوفهم [illegible] حلومهم. كل هذا في أشرف لفظ وأوجزه، [illegible] قال:

[illegible] السيوف [illegible] وقوة
[illegible] البلاد [illegible] ونسيفها(١)

إذا ما هبطنا بلدة كرم أهلها
أحالت إخشاب تحاة تخيفها

ولما رمى سرب الرعية ذادها
عن الخطب محضر التلاع مريعها(٢)

علمت يقينا مذ توكل جعفر
على الله فيها أنه لا يضيعها(٣)

* * *

(١) السيوب: الفلوات، والواحد سيب بالفتح.

(٢) ذادها: منعها وحماها. والتلاع: مرتفعات الأرض ويكون فيها النبات، الواحدة تلعة. والمريع بفتح الميم: الخصب يشير إلى كرم الممدوح وخصوبة ممالكه.

(٣) يشير بقوله: «توكل جعفر على الله فيها» إلى لقب الخليفة المتوكل على الله، وهو استخدام حسن لهذا اللقب.

أَسِيتُ لِأَعْرَابِي رَبِيعَةَ إِذْ غَنَتْ ... مَصَايِفُهَا مِنَّا وَأَقْوَتْ رُبُوعُهَا (1)

بِكُرْهِيَ أَنْ بَاتَتْ خَلَاءً دِيَارُهَا ... وَوَحْشًا مَغَانِيهَا ، وَشَتَّى جَمِيعُهَا (2)

وَأَمْسَتْ تُسَاقِي الْمَوْتَ مِنْ بَعْدِ مَا غَدَتْ ... شُرُوبًا تُسَاقِي الرَّاحَ رِفْهًا شُرُوعُهَا (3)

إِذَا افْتَرَقُوا عَنْ وَقْعَةٍ جَمَعَتْهُمُ ... لِأُخْرَى دِمَاءٌ مَا يُطَلُّ نَجِيعُهَا (4)

تَذُمُّ الْفَتَاةُ الرُّودُ شِيمَةَ بَعْلِهَا ... إِذَا بَاتَ دُونَ الثَّأْرِ وَهْوَ ضَجِيعُهَا (5)

حَمِيَّةُ شَغْبٍ جَاهِلِيٍّ وَعِزَّةٌ ... كُلَيْبِيَّةٌ أَعْيَا [illegible] (6)

وَفُرْسَانُ هَيْجَاءٍ تَجِيشُ صُدُورُهَا ... بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا (7)

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أَعَزَّ نُفُوسِهَا ... عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيعُهَا (1)

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ ... شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا (2)

فَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَطَوْلُهُ ... لَعَادَتْ جُيُوبٌ وَالدِّمَاءُ رُدُوعُهَا (3)

وَلَاصْطُلِمَتْ جُرْثُومَةٌ تَغْلِبِيَّةٌ ... [illegible] أَغْصَانُهَا وَفُرُوعُهَا (4)

وَكُنْتَ أَمِينَ اللهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا ... وَمَوْلَاكَ فَتْحٌ يَوْمَ ذَاكَ شَفِيعُهَا

[illegible] شَرَّفْتَهُ بِصَنِيعَةٍ ... إِلَى الْيَوْمِ وَالْعُتْبَى فَلَاحَ فِيهِمْ شَفِيعُهَا

تَأَلَّفَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا شَرَدَتْ بِهِمْ ... حَفَائِظُ أَخْلَاقٍ بَطِيءٍ رُجُوعُهَا

وَأَمْضَى قَضَاءً بَيْنَهَا فَتَحَاجَزَتْ ... وَمَخْلُوسُهَا رَاضٍ بِهِ وَرَفِيعُهَا

---

(1) أسيت : حزنت . ويريد ربيعة بن نزار بن معد وإليه ينتمي تغلب . وغنت : خلت معالمها ، وأقوت : أقفرت .

(2) المغاني : المنازل .

(3) تساقى : تتساقى . والشروب : الجماعة يشربون ، الواحد شرب بفتح الشين . و«رفهاً شروعها» : سهل موردها رغد من عادات لا تمنع منه ، كنى بهذه العبارة عن لين العيش ورغده .

(4) «ما يطل نجيعها» : أي لا يهدر دمها ، كناية عن حرصهم على الأخذ بالثأر .

(5) الرؤد من النساء : الشابة الحسنة ، ويريد «شيمة بعلها» : قعوده عن الأخذ بالثأر . وخص الفتاة لأن الفتيات أشد بغضاً لموقف من الحرب لما يلحقهم من محنة وعقوبة .

(6) الشغب : تهييج الشر .

(7) يقول : إن أحقاد المتحاربين وأضغانهم أكثر من أن تسع لها صدورهم الضيقة ، بل ترى كثيراً من ضيق الدروع إلى على الصدور . وهي مبالغة حسنة .

(1) الوتر : الثأر والمطالبة به .

(2) يريد بشواجر الأرماح : الرماح المتشابكة في الحرب ، وشواجر الأرحام : القرابات المتشابكة المتصلة أبداً . يريد أن الحروب تقطع ما بينهم من قرابة كان ينبغي أن توصل .

(3) الردوع : آثار الطيب في البدن والثياب ، الواحد ردع بالفتح . يريد أنهم كانوا في هذه الحرب يطيبون بالدماء في أبدانهم وأثوابهم ، ويعدونها من الطيب .

(4) اصطلمت : استؤصلت .

(البقية على صفحة ٢٧)

من الأدب الهندي الاسلامي

من ديوان « بانك درا »

لمحمد إقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

عرضت على قراء العدد الأول من الثقافة شذرات من الأدب الهندي الإسلامي مترجمة من شعر غالب ومحمد إقبال .

واليوم أعرض قصيدتين لمحمد إقبال أيضاً . ترجمت إحداهما نظماً ، والأخرى نثراً .

أمنية

لقيت دنياي بالنفور ... مل [illegible]
قد ملّ القلب ، هل أرجي ... من قبل [illegible]
أفرّ من عمر جياء ، ومن لي ... بالصمت من [illegible]
أريد هدوءاً بظل كوخ ... في جبل — بذرو حقير
أطرح في عزلتي همومي ... وأقلع الشوك من ضميري(1)
زقزقة الطير لي غناء ... ومزهر النبع في الخرير
والزهر ينشق عن نباته ... يصوغه الشعر في سطور
وسادتي ساعدي . وحتى ... في مضجع معشب ونير
يأتي لي البلبل المغني ... لا خوف في قلبه الصغير
والماء ينساب في صفوف ... من شجر مزهر نضير
يصوّر الكون في صفاء ... يلمع في مائه النمير
تشوق مرأى الجبال حتى ... يستشرف الموج في سرور
والشمس تبرز في رداء ... والماء يعطفان المسير
تزرع الورد في الصباح ... تقبل الماء في حبور
نظرة حسناء في المرايا ... تسأل في الحسن عن نظير

* * *

وتخضب الشمس أفق ليلي ... صائغة حلة الزهور
يبدو لنفسي الشروق رداء ... من نور شفقي الكبير
ويجتمع في الليل والدياجي ... يكشف عن كوكب الحقير
[illegible] النار لنفسي ... مؤذن الصبح — في هدير
[illegible] ... لله من مشهد خطير !
[illegible] ... يضحى صوتها بتبري
الزهر [illegible] ... وأدعى هاتفة طهوري
وأهتف صاعدة دعائي ... يعلو إلى رقي الغفور

(1) في الأصل : وتطلع شوكة ألم الدنيا من قلبي (دنيا ك [illegible]) [illegible] .

دعاء

رب ! امنح قلب المسلم رجاء يحيي له فؤاده ، ويضطرم به روحه .

رب ! أشعل في وادي فاران(1) كل ذرة ، ثم امنحنا شوقاً إلى النظر ، وكلفنا بالطلب .

وامنح كل غافل عيناً بصيرة ، وأره ما أريتني من الحقيقة .

رب ! مكّن هذا الظبي الشريد حظ الحرم ، ليأنس ويسلم(2) .

(1) وادي فاران الذي أبصر فيه موسى الكليم النار .

(2) يقول إقبال في بعض شعره : أيها الظبي الذي شرد من سواد الكعبة ، الأشياء الصيادون . يعني أنه فارق الحرم حيث لا يحل الصيد فهلك . وهو يقصد بذلك نفور المسلم من شعائره .

وامنح كل آمن من أهل الدائل، سعة الصحراء، وحرية البيداء.

وانفخ في القلب الجامد ثورة الحشر، والعزم الذي لا يُقهر. ورده إلى المودع الخائل تيلاه، وامنح كل جاهد ما ينشد.

وامنح في ظلمات هذا العصر، كل قلب نوراً كالصبح إذا أسفر، ومحبة عذبة يخجل لها القمر(1). املأ الصدور بالنور، واجعل القلب في صفاء البلور.

وامنحنا من الشقاشق سمواً، واجعل مقاصدنا كالثريا علواً. وامنحنا ثبات الشامخ، وحرية الخضم الهائل.

اللهم أسألك محبة منزّهة عن الرغبة، وصداقة بريئة من الرهبة.

امنحنا يا رب العزة بالمقالات، والثبات في النوائب، وهبنا في العيش الرغد، التفكير في الغد.

رب! إني ظلل في عذاب، يروح [illegible] أسألك ألا يخيب نواحي سعدي، وأن يكون لي في [illegible] السر صدق.

رب! إني سائل راج، لا تحرم يائساً ذلك الحاج.

عبد الوهاب عزام

استدراك: وقع في شعر إقبال الذي نشر في العدد الأول تحريف اختلت به بعض الأبيات. فنعيد البيتين المزدوجين هنا:

حر في الأحرار عمر زاخر ... وهو في عمر الرق، الحياة
تحتمي في الطين سراً وترى ... نقوى التسخير والخلق الحياة

(1) كذا في النص الفارسي والأردوي «لالة» ووالي القمر، والمراد هو الوسم الذي يكون بالشكل، ويشبهون في شعرهم النبات هذا الوسم لأن في داخلها نكتة سوداء، ويشبهون في وجه القمر هذا الوسم أيضاً.

من أحسن ما يروى

(بقية المنشور في صفحة ٢٥)

قربت قلوب كان نعما وجيبها
ونامت عيون كان نزراً هجوعها(1)

أتتك وقد لانت إليك خدودها
وباعدها عنا تكرهت نزوعها(2)

تميد ونسري من تناه كأنه
سباسب روض الحزن جاد ربيعها(3)

تمد حمياه أن تراك بأفقي
إلى [illegible] عاصيها يحلم مطيعها

ولا تعذر إلا أنت حلم خليها
وفي شرز جنـاه خليعها(4)

أثيبت [illegible] بالعفو محسناً
على قلب حتى استمر خليعها(5)

ومشفقة تخشى حداً على أبيها
لأول هيجاء تلاقي جموعها

وعدت بمنع القوم عز جانبها
فعز حماها واطمأنت ضلوعها

أحمد الزين

(1) وجيب القلب: اضطرابه. والنزر: اليسير.
(2) لانت: رقت. و[illegible]: الطول.
(3) سباسب الروض: أي فلواته، تشبيهاً لها بالسباسب، وهي القفر من الأرض، الواحدة سبسب. شبه الثناء بقطع الروض في خصب ربيعه وانتشار شذاه.
(4) الخليع: الذي خلعه أهله وتبرءوا منه لكثرة جرائمه وغيره.
(5) استمر خليعها: أي استقام أمرها بعد فساد.

الطفل واللغة القومية

للأستاذ محمد خلف الله

من المشاهد أن الأطفال يتعلمون لغة أبويهم وعشيرتهم، في السنوات الأولى من حياتهم، في يسر وسهولة تتطلع إليهما أعناق الكبار الذين يحاولون أن يتعلموا لغة أجنبية.

والموازنة بين هذين النوعين من التعلم طريفة ومفيدة معاً؛ ففي إحداهما كفل الزمان رضيع صغير، ليس لديه تجارب ولا معارف سابقة، يتلقى اللغة بالسماع، وعن طريق التدريب الشفوي، لا على يد معلمين فنيين، ولا في أسلوب تعليمي منظم، ولكن على يد أبوين وأسرة وعشيرة وبيئة. وفي الطرف الآخر من الموازنة شخص كبير، مزود بصنوف المعارف والقوى الناضجة، يتلقى اللغة الأجنبية في نظام ذي قواعد وأصول، وطرق مدرسية من الكتاب الصعب، وعلى يد طائفة أعدت إعداداً خاصاً لتدريس اللغة، مستعيناً بالتدريب الكتابي والشفوي، وبكتب المطالعة والمعاجم اللغوية وغيرها.

هذا التفاوت البيّن في الاستعداد والطريقة، يقابله تفاوت عكسي في النتيجة؛ فإننا نجد الطفل الصغير قد انتهى بإجادة اللغة وتصريف أبنيتها، في حين نجد الكبير — في محاولته تعلم اللغة الأجنبية — ينتهي بعد سنوات إلى مستوى ناقص في استعمال اللغة وأساليبها مهما يكن ذلك المتعلم ذكياً أو واسع التفكير.

* * *

ومن المفيد من الوجهتين النظرية والعملية أن نبحث في سر هذا التفاوت، وأن نجمع نتائج البحث في تيسير مشكلاتنا اللغوية الحاضرة:

هل السر في أرجحية الطفل على الكبير مرونة الأجهزة الصوتية في الصغر، وفقد تلك المرونة — أو على الأقل نقصانها — في الكبر؟ أم السر قوة إحساس آذان الأطفال بالأصوات؟ أم أن خلوهم من العادات السابقة المتأصلة — التي يزدحم الكبار تحت أعبائها في تعلمهم لغة جديدة — يساعد الأطفال في تحصيل لغتهم القومية في سهولة وإتقان؟ أم أنهم ينصرفون أثناء تحصيلهم اللغة لهذه المهمة وحدها، ولا يشغلهم ما يشغل الكبار من كد وراء العيش، والجد في طلب العلم؟ أم أن الوراثة تسهل على الطفل تحصيل لغة آبائه بما تترك في خلايا دماغه من منعرجات وتلافيف ومعرفة خاصة بتلك اللغة الخاصة؟

* * *

تلك النظريات كما نرى لا تسلم من سهام النقد، ولا تنهض واحدة منها — منفردة — سبباً كافياً للتفرقة بين تعلم الطفل وتعلم الكبير. فلو أن الأجهزة الصوتية عند الأطفال من المرونة كما تدعي الفكرة الأولى لنطقوا الأصوات قريبة من الإتقان عند سماعها، ولقلّت تلك الأخطاء الكثيرة التي تنتشر بينهم في بدء نطقهم الأصوات المختلفة، والواقع أن وقتاً طويلاً يمضي عليهم قبل أن يصلوا حد الإتقان في تقليد أصوات الكلام.

ومثل ذلك يقال في قوة إحساس آذانهم بالأصوات، فإن الأذن تتطلب وقتاً لنموها وقيامها بوظيفتها، وهي لا تميز في بدء أمرها كثيراً من ألوان الأصوات التي تميزها أذن الكبار في دقة وسهولة.

أما فكرة الخلو من العادات السابقة فيلاحظ عليها أن الأطفال في تعلمهم لغة آبائهم وأمهاتهم يغالبون بعض العادات التي استقرت في نفوسهم . وليس صحيحاً ما يقال من أن شئونهم في الصغر قليلة ، فإن الطفل أثناء تعلمه الكلام يواجه مشكلات أخرى يصرف فيها جزءاً كبيراً من نشاطه ، وعليه في سنواته الأولى أن يحصل عادات ونواحي نمو لا يسهل تحصيلها أو تنميتها بعد فوات الطفولة .

وقد يكون في فكرة الوراثة شيء من الصحة ، ولكنها لا تزال تفتقر إلى إثبات علمي ، ومما يشكك في صحتها أن أطفال المهاجرين مثلاً يتعلمون لغة الوطن الذي يهاجرون إليه كتعلم أطفاله الناشئين على ثراه .

* * *

ومهما يكن من أمر هذه النظريات فالاختلاف في كسب اللغة بين الطفل والكبير حقيقة واقعة [illegible] الشعر نلمس أسباب هذا الاختلاف و[illegible]

إحداها خصائص نمو الطفل في سنيه الأولى ، فالوقت المناسب لتعلم اللغة الوطنية هو نفس الوقت المناسب لكثير من أنواع التعلم الأخرى ، وهو السنوات الخمس الأولى من الحياة ؛ ففيها يتعلم الطفل الحركة والمشي واللغة ومبادئ التفكير ، وفيها — كما يذهب كثير من العلماء — يقرر الطفل أسلوب حياته المستقبلة . وقد اهتم العلماء أخيراً بهذه المرحلة ، ودرسوها دراسة تجريبية ، وحددوا المُثُل التي يجب أن يصل إليها النمو الطبيعي في جميع مظاهره (ومن أهم هذه المظاهر القدرة على التعبير اللغوي واستعمال أجزاء الكلام) ، وبيّنوا ما يعتورها من شذوذ وما يؤثر عليها من عوامل ، واعتبروا النمو في المراحل التالية لها تكشفاً وترقياً في خصائص تلك المرحلة الأولى ومميزاتها .

والناحية الثانية مركز الطفل في بيئته الأسرية المحدودة وموقف أفراد تلك البيئة منه ، فالطفل يسمع لغته القومية من الصباح إلى المساء ، وهو يسمعها واضحة المخارج والمقاطع ، موحَّدة الاستعمال في ألفاظها وأساليبها ، وفي نحوها واشتقاقها ، وهو ينهل من موردها العذب الدائم التجدد طول يومه ، وهو — قبل أن يحسن استعمالها — يسمعها من المحيطين به مكررة عباراتها ، مقرونة في كثير من الأحيان بالعمل الموضح لها ، فالأم في مناغاتها لوليدها ، وفي قيامها على شئونه المختلفة ، تعيد على سمعه كثيراً من الكلمات التي تدور حول معنى واحد ، وتقرن الكلام بالعمل في معظم الحالات .

ولأمر ما كان النساء أكثر كلاماً من الرجال ، فلو أن الإشراف على الأولاد في مستهل حياتهم عُهد إلى الآباء ، لأبطأت سرعة الأطفال في تعلمهم الكلام وإجادتهم [illegible]

[illegible] الأديبة (اليزابث براوننج) في هذا المعنى أبياتاً عذبة الوقع تصف فيها كيف أوحى الله إلى الأمهات أن يشغلن أبناءهن في طريقة مرحة محببة ، وكيف أودع فيهن القدرة على نظم عقود من الكلمات الجميلة لا معنى لها ، وعلى أن يتفقن مع قلوبهن معاني كاملة في أصوات تافهة ، حين يحملن الوليد بالحب ، ويلاعبنه أثناء اللعب ، ويحفظن عليه مرحه وحنانه طويلاً ، والآباء يحبون أبناءهم كذلك ، ولكن حبهم متعلق بأدمغة رزينة ، وإرادات شاعرة بتبعاتها ، فحبهم ليس حكيماً كحب الأمهات لأنه أقل منه خفة وحمقاً !!

أضف إلى ما سبق أن الطفل يتمتع بدروس خاصة في لغته طول وقته ، وهو يسمع اللغة في كل أحوالها ومواطنها الممكنة ، في شكل طبيعي غير متكلف ، تتوارد فيه اللغة وظروفها ، وتتطابق الكلمات والإشارات وتغييرات الوجه بما يساعد الطفل على صحة الفهم وضبطه .

ولأغلب ما يسمعه الطفل في صغره موقع خاص عنده ، ذلك لأنه يمتعه ويبهجه ويرتبط برغائبه وراحة جسمه ، وما يبدأ هو ينطق ببعض الكلمات حتى يحس قدرتها السحرية على تحقيق مطالبه ، فيشعر إذ ذاك بقيمتها العملية ، ويزيد هذا في حسن إقباله عليها وفي تذليل صعوبة استعمالها ، حتى النوع الذي يسمعه ولا يكون له علاقة بحاجته الحاضرة لا يذهب سدى ، ولكن يُدّخر في ذاكرته ليوم يحتاج فيه إليه . وكل ما يسمعه الطفل ولو من لغة غير لغته الأصلية يخلف أثراً عنده ، والأمثلة على ذلك كثيرة في الدراسات الحديثة نكتفي منها هنا باثنين :

الأول ما رواه Stern عن طفل عاش في سيليسيا السنة الأولى والنصف من حياته ، ثم جيء به إلى برلين في وسط لم تتح له فيه فرصة سماع اللهجة السيليسية ، فكان مما دهش له المحيطون به أن سمعوه — وهو في سن الثالثة — ينطق بأساليب وتعبيرات سيليسية ، [illegible] هذا من أن ذلك راجع إلى مدة السنة والنصف التي قضاها في تلك المقاطعة .

والمثال الثاني ما رواه Grammont عن طفلة فرنسية كانت لها حاضنة تتكلم الفرنسية بلهجة إيطالية ، ثم تركتها هذه الحاضنة قبل أن ينطلق لسانها بالكلام بمدة وجيزة ، فما هو إلا أن بدأت الطفلة تتكلم حتى لوحظ أن في لسانها شيئاً من اللهجة الإيطالية ، ولم يزل هذا يلازمها حتى سن الثالثة .

على أن هناك جانباً آخر لا يصح إغفاله ، ذلك أن بين الطفل وبين الذين يتعهدونه اللغة في صغره صلة روحية قوية ذات طابع شخصي ، فهم يهتمون بكل صغيرة وكبيرة مما يفعله ، ويسرون بكل خطوة صغيرة يخطوها ، ويقابلون محاولاته المتعثرة بالعطف والتشجيع ، ولا يعرضون محاولاته للنقد والتشهير . وأذكر أن هناك مثلاً في إحدى اللغات الأوربية يقول : « إذا أردت أن تتكلم جيداً فرفق نسيج اللغة أولاً » ، أي اهتمّ بالكلام ، ودع عنك التفكير في الخطأ . ولكن كثيراً من مدرسي اللغات ينسون هذا ، فهم يطالبون المتعلم بالدقة من مبدأ الأمر ، ولا ينقلونه من موضوع حتى يتقنه ، وربما أضعفوا بذلك رغبته في تعلم اللغة ، أو ذهبوا بها على الإطلاق . والصبي لحسن الحظ ليس عرضة لشيء من ذلك ، فإن كل حرف يفوه به يقابل من أمه ، والمحيطين به في دائرة الأسرة بالسرور والإعجاب .



هذه هي مزايا تحصيل اللغة القومية في المراحل الأولى من العمر ، أفلا نستطيع نحن أن نعمل في هذه الناحية [illegible] لمشكلة تعليم اللغة الفصيحة ؟ نحن الآن سائرون على الدرب في سبيل الإصلاح من تيسير نحو [illegible] بعض المدرسين على إلقاء دروسهم [illegible] اللغة الصحيحة ، والتعامل بهذه اللغة في التخاطب بين الجمهور المثقف ، ونحن الآن معنيون بنشر التعليم بين الأفراد ، حتى يجيء اليوم الذي يقرأ فيه الجميع ويتكلمون لغة واحدة في المنزل والحقل والمصنع والمتجر .

ولكننا لا نكاد ننتبه إلى أن اللغة العامية في مرحلتها الحاضرة تحتل من ذهن الطفل المكان الأول ، وأنها عنده لغة الفطرة والطبيعة يتكلمها دون تلجلج أو توقف . ونحن نترك حبله على الغارب في سني الإنشاء والتكوين ، ثم نجيء بعد ذلك فنكلفه تعلم اللغة الفصيحة ، ونزحم ذهنه بالقواعد والضوابط ، فإذا ما زلّ أو عجز رحنا نحن نعيب على اللغة العربية كثرة شواردها وحركات إعرابها ، ونيأس أو نكاد من الإصلاح .



(البقية على صفحة ٥٠)

الشمس مصدر الحياة
في طريق الاضمحلال والانقراض

للأستاذ قدري حافظ طوقان

مزايا الشمس :

الشمس هي أم السيارات ، والجنة الكبرى للتوابع والأقمار . ولولاها لما وجدت الحياة على الأرض ، ولما وجدت الحركة والقوة . وبواسطتها — نورها وحرارتها — تنمو المزروعات والأشجار ، وتعيش الحيوانات ، ويتكون الفحم الحجري ، وتتبخر المياه ، وتهب الرياح والعواصف حاملة البخار الذي يتكاثف فيسقط أمطاراً وثلوجاً . ولا يخفى أن الإنسان استطاع — بفضل ما وهبه الله من قوى عقلية في الابتكار والاختراع — أن يستخدم قوة انحدار الماء المتكون من ذوبان الثلوج في منافعه الخاصة ؛ وقد تمكن بالآلات المختلفة أن يحولها إلى كهربائية وغيرها من أنواع الطاقة المتعددة .

قد يستغرب القارئ إذا علم أن الشمس — وهذه بعض مزاياها — نجم مثل سائر النجوم التي نراها ليلا ، وقد يزيد استغرابه إذا علم أيضاً أنها من النجوم المتوسطة الحجم ، وأن بين الأجرام السماوية ما هو أكبر منها بمئات وألوف المرات ؛ ومع ذلك فحجمها كبير يقدر بمليون وثلثمائة ألف مرة مثل حجم الأرض . وهي تبدو كبيرة بالنسبة لغيرها من الأجرام السماوية ، لأنها قريبة منا ، ولو كانت على بعد بعض النجوم لضؤل نورها ، ولما استطعنا أن نراها بالعين المجردة .

قرب الشمس :

الشمس أقرب نجم إلينا ، وتقدر المسافة بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، فلو سار قطار سكة حديدية إليها بسرعة خمسين ميلا في الساعة ، لوصلها في ٢١٠ من السنين . فأين لنا بالسائق يعيش هذه المدة ، والسكة والقطار ؟ ! ولو أطلقنا قنبلة مدفع بسرعة نصف ميل في الثانية وكان في الإمكان جعل الانطلاق متواصلا وبهذه السرعة ، لوصلت إلى الشمس في سبع سنين . فأين لنا بالطاقة التي تستطيع تزويد القنبلة بما يكون سيرها متواصلا وبسرعة نصف ميل في الثانية ؟ والأمواج اللاسلكية التي تدور حول الأرض سبع مرات في ثانية واحدة ! ! والتي سرعتها تساوي سرعة النور الرهيبة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية ؛ هذه الأمواج إذا أرسلت إلى الشمس تصلها في ثماني دقائق وربع دقيقة !

ولكي يدرك القارئ قرب الشمس إلى الأرض ، بالنسبة لغيرها من النجوم ، نقول لو أرسلت هذه الأمواج من الأرض إلى أقرب نجم إلينا بعد الشمس لوصلته بعد أربع سنين ونصف سنة ؛ فاعجب ! !

الشمس تضمحل :

يصدر من الشمس مقدار عظيم جداً من الحرارة

والنور ، ينبع في كل الجهات ، وما يصيب كرتنا من هذا لا يزيد على جزء واحد من ألفي مليون جزء .

ودرجة الحرارة على سطحها تقدر بـ ٦٠٠٠ درجة سنتيغراد ، وترتفع هذه كلما تدرجنا من الخارج إلى الداخل ، إلى أن تبلغ ملايين الدرجات !

ولكي يتصور القارئ عظم هذه الحرارة نقول : إنه إذا وجد بين الأرض والشمس اسطوانة من الثلج قطر قاعدتها ميلان وطولها ٩٣ مليوناً من الأميال ، واستطعنا أن نسلط على الأسطوانة الجليدية كل ما في الشمس من حرارة ، ففي ثانية واحدة تذوب كلها ، وفي ثمان ثوانٍ تتحول إلى بخار ! فتأمل ..

ويقول (جينز) إننا إذا استطعنا أن نأخذ من جيبنا قطعة من ذات خمسة القروش ونسخنها إلى درجة حرارة مركز الشمس ، فإن حرارتها تكون [illegible] كل حي على بعد آلاف من الأميال منها [illegible]

أما الضغط على الشمس فحدث عن غرابته ولا حرج ... وقد وجد العلماء أن الضغط في مركز الشمس يعادل ملايين الأرطال على البوصة المربعة . ولسنا بحاجة إلى القول أن العناصر الموجودة في الشمس تتفتت وتتحول إلى جواهرها الفردة إزاء حرارتها العظيمة المخيفة . بل إن الجواهر الفردة (لبعض العناصر) تتحلل إلى الكهارب والبروتونات التي تتألف منها تلك العناصر .

وهذا يعطينا فكرة عن الشمس ، وأنها ليست إلا كتلة نارية هائلة ، فيها من القوة ما يصهر العناصر ويحولها إلى غازات تثار في الشمس محدثة الأنواء والعواصف والزوابع ، يخرج منها نافورات عظيمة من اللهب وألسنة أرجوانية إلى الفضاء ، ترتفع إلى آلاف الأميال في أشكال تثير الروعة والدهشة والاستغراب ..

لقد حسب الفلكيون مقدار ما يخرج من الشمس من الطاقة عن طريق الإشعاع ، فوجدوا أن الكمية عظيمة جداً وفوق التصور ، وأن كل متر مربع من الأرض يتلقى من أشعة الشمس قوة تعادل قوة حصانين أو (١٦٠٠٠٠٠) حصان لكل كائن من البشر . وإذا كانت هذه هي القوة التي تخرج من الشمس إلى الأرض تعادل جزءاً من ألفي مليون جزء مما تشعه إلى الفضاء ، فما قولك بقوتها كلها ؟! ....

إن الحسابات الدقيقة تبين على أن الشمس تفقد من مادتها عن طريق الإشعاع (٣٦٠٠٠٠) مليون طن في كل يوم !!! .. فهل لنا بعقل يتصور هذه القوة الهائلة . وإذا كانت الشمس تفقد يومياً هذا المقدار ألا يوحي هذا إلى الإنسان بأنه لو بقيت على هذه الحال أفي مدة معينة [illegible] ما فيها من طاقة ويكون مصيرها الاضمحلال والتفتت وتصبح الأرض حينئذ غير صالحة للحياة على ظهرها ، ويختل النظام الشمسي وتسوده فوضى لا يعلم نتائجها إلا الله .

ولقد أخذ هذا البحث كثيراً من عناية من العلماء وتوصلوا إلى نتائج مرضية مطمئنة ، وقالوا : لا موجب للقلق وإن هناك قوة وذخيرة تأتي الشمس بعوامل مختلفة ، وإنه على الرغم من أن هذه القوى والذخيرة أقل بكثير مما يصدر منها (من الشمس) إلى الفضاء ، فمنها قوة تمد في عمرها إلى آلاف الملايين من السنين . ويتساءل كثيرون كيف تتولد في الشمس هذه المقادير العظيمة من الحرارة ؟ وكيف تنشأ هذه القوى في جوفها وعلى سطحها ؟

هذا التساؤل في محله ، حاول بعض العلماء الإجابة عليه . فقالوا بأن تفكك الجواهر الفردة (لبعض العناصر) وانطلاق القوى الهائلة المخزونة في تلك الجواهر هو السبب في حرارة الشمس وفي القوى الموجودة فيها .

الأزمة والشمس:

يُرى على الشمس بقع سوداء (كلف) تظهر وتختفي، بعضها بسرعة وبعضها ببطء. ويختلف العدد الذي يظهر، ويكون على أكثره كل إحدى عشرة سنة. ومن هذه البقع ما هو كبير جداً يسع الأرض ومن عليها، وهي تتألف عادة من منطقة فاتحة اللون في وسطها بقعة سوداء كأنها تجاويف عظيمة. واختلف الفلكيون في سبب ظهورها، ويرجح الكثيرون أنها تتكون بسبب التغيرات الكثيرة الناتجة من تأثيرات الحرارة في جوف الشمس، وأن هنالك مواد تخرج من هذا الجوف إلى السطح، وعند خروجها تبرد وتظهر مظلمة بالنسبة لوجه الشمس ذي النور الباهر. وزيادة على ذلك فقد يكون فيها كهربائية قوية تقوى معها مغناطيسية الشمس والأرض. وثبت لدى العلماء أن ظهور البقع واختفاءها [illegible] في تاريخ الشمس ونتيجة لعوامل ثابتة.

لم يستطع أحد أن يجد علاقة بين الكلف وحالة الطقس، ولم يتوصلوا إلى نتائج مرضية، ولكن الثابت أن حرارة الشمس تكون أشد من المعتاد عند ظهور الكلف وعندما تكون على أكثرها. أما فيما يتعلق بالنبات والقطن وأحوال أخرى جوية فليس للكلف بها علاقة أو تأثير، وإذا كان هنالك شيء من هذا القبيل فهو بسيط جداً لم يستطع العلم إدراك مداه بعد. أما ما نسبه بعض الفلكيين إلى الكلف من حدوث زلازل وفيضانات وحروب وأهوال وأمراض وأزمات تجارية، فهذا مما لم يثبت علمياً وما لا يزال في دور البحث.

الآلة الفاحصة:

وقد تمكن العلم الحديث من معرفة أشياء كثيرة عن تركيب الشمس الكيمياوي واستطاع الفلكي بفضل آلة الطيف «السبكتروسكوب» أو كما يسميها الأستاذ الكرداني «مبين الأطياف» وغيرها من الآلات، أن يدرس طبائع النجوم والشمس وأن يتحقق من وجود العناصر التي يتركب منها جو الشمس، الأمر الذي كان قبل ستين سنة خيالاً وتحقيقه من المستحيلات.

ولسنا الآن في مجال ذكر تركيب هذه الآلة الفاحصة التي أزالت الشيء الكثير من غموض الشمس والنجوم وحركاتها ومجراتها وما يتعلق بنورها وحرارتها، فقد يخرج ذلك عن موضوعنا، ونترك الكلام عن عملها إلى الكتب العالية في الفيزياء. ولكن لا بد لنا من سرد المبدأ الذي تقوم عليه دراسة طبائع الشمس والنجوم وهو يتلخص [illegible]

إذا مر شعاع نور أبيض (كنور الشمس) على منشور [illegible] الأشعة تنفذ منه وتتحلل بحيث إنها [illegible] أبيض ظهرت الأشعة النافذة عليه كشريط ملون طرفه الأسفل أحمر وطرفه الأعلى بنفسجي، وما بين هذين اللونين يقع البرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي. ويسمى هذا الشريط الملون بالطيف. وثبت حديثاً أن العناصر المختلفة — إذا كانت غازية أو سائلة أو مواد صلبة محماة إلى درجة الإحمرار — أضواءً إذا حللت بمبين الأطياف تكون لها أطياف تتميز بها العناصر بعضها عن بعض. ويمكن للعالم أن يعرف فيما إذا كانت الأشعة التي يحللها من (الآلة المذكورة) خارجة من عنصر الحديد أو الهيدروجين أو الصوديوم.

وعند اختبار الطيف الشمسي وجد أن أضواء الطيف تتخللها خطوط مظلمة رأسية كثيرة العدد موزعة في الطيف في مواضع معينة منه، وتعرف هذه الخطوط بخطوط «فرنهوفر».

وقد يعجب القارئ إذا علم أنه استدل من هذه الخطوط على وجود مواد في الشمس لم تكن معروفة على سطح الأرض كغاز الهليوم.

ولقد وضع العلم للحصول على أطياف العناصر المختلفة طرقاً وقواعد، ويمكن لمن يرغب الاستزادة في هذه البحوث الطريفة أن يرجع إلى الكتاب النفيس القيم الذي وضعه الأستاذ نظيف عن المطيافات. ومن هذه الأطياف وتلك الخطوط عرفنا المواد التي يتركب منها جو الشمس، وعرفنا أن الهيدروجين والهليوم والكربون والصوديوم والكلسيوم والحديد والنحاس والكبريت والنيكل موجودة بكثرة في جو الشمس، وأن أكثر العناصر المعروفة على أرضنا موجودة فيها أيضاً. وعرفنا أيضاً أن ثلاثة وعشرين عنصراً من عناصر المادة التي كان يظن أنها خاصة بالأرض وُجدت حديثاً في الشمس، وأن هذه العناصر موجودة فيها بالنسبة التي [illegible]

أليس في هذا الدليل القاطع على [illegible] الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها في الأزمان السحيقة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عرفنا بواسطة هذه الآلة الشيء الكثير عن حرارتها وقوانين دورانها وحركاتها وضغط جوها. واستطاع الفلكي فوق ذلك أن يعرف المواد التي تتركب منها النجوم التي تصل نورها إلينا، وأن يقف على كثير من خواصها وسرعتها وحركاتها، وهل هي نحو الأرض أو بعيداً عنها.

بعد هذا... ألا يوافق القارئ على تسمية آلة «مبين الأطياف» بالآلة اللاقحة المعجبة!!...

جاذبية الشمس:

كل ما في الكون يسير على نظام الجاذبية، من الشمس العظيمة إلى ما هو أعظم منها إلى أدق ذرة من التراب — كل هذه تتحرك ضمن هذا النظام. ولولاه لما سار القمر حول الأرض على الصورة التي نعرفها، ولما كانت حركات السيارات في أفلاكها، ولما كان المد والجزر على الأرض أو على غيرها. وما نراه في الشمس وسياراتها وتوابعها من السير على هذا الناموس نراه في النجوم، فهذه أيضاً سياراتها وملحقاتها لا تشذ عنه ولا تخرج عليه، بل هي دائماً وأبداً مطيعة له سائرة في دائرة حدوده وأنظمته. وفوق ذلك استطاع العلماء بواسطته واستغلال المعادلات الرياضية، أن يحسبوا كتلة القمر والأرض وبقية الكواكب وتوابعها وغيرها من النجوم والأجرام السماوية. وتختلف قوة الجاذبية بين جسمين حسب كتلتيهما والمسافة بينهما، فهي تزداد تبعاً لزيادة الكتلتين أو نقص في المسافة، كما تنقص هذه القوة تبعاً لنقص الكتلتين أو زيادة في المسافة.

و[illegible] الجسم على الأرض إلا تعبير آخر عن قوة [illegible] الأرض، فإذا قيل إن ثقل جسم ما هو ٥٠ كيلوجراماً، فهم من ذلك أن قوة جذب الأرض إلى ذلك الجسم تساوي ٥٠ كيلوجراماً. ولما كانت كتلة الشمس كبيرة جداً، إذ تعادل (٣٣١٩٥٠) مرة قدر كتلة الأرض، فالجاذبية عليها عظيمة كذلك، وهي أكثر من جاذبية الأرض بسبع وعشرين مرة، فالوزن على أرضنا رطلاً يزن على الشمس ٢٧ رطلاً. والجسم الذي يزن (٦٥) كيلوجراماً هنا يكون هناك أكثر من ١٧٠٠ كيلوجرام!!

ولا بد لنا من القول إن هذا الناموس أتى بالعجب العجاب، وبالسحر الحلال، إذ استطاع الفلكيون والرياضيون بواسطته التنبؤ عن حركات السيارات، كما كان في الإمكان أن يكشفوا بعض السيارات.

ولا ندري، فقد يأتي هذا الناموس بما هو أعجب!!

والشمس تجرى !

اختلف الناس منذ القدم فى حركة الشمس ، هل تجرى ؟ هل لها حركة كالأرض والكواكب ؟

قال أناس إنها ثابتة . وقال آخرون إنها متحركة !

والحقيقة أنه للشمس حركة حول محورها ، ولكن ليس لها حركة فى الفضاء تشابه حركة الأرض ، بمعنى لا تدور حول نجم من النجوم مثلا . بل إنها تتحرك كما تتحرك بقية النجوم ، وتسير فى الفضاء بسرعة (٧٥٠) ميلا فى الدقيقة ، أو ما يزيد عن مليون ميل فى اليوم . ولا شك أن الشمس وهى تسير بهذه السرعة تسحب معها سياراتها وتوابعها والنجيمات ، وكل ما فى النظام الشمسى يسير معها بهذه السرعة نحو كوكب [illegible] النسر الواقع .

وعلى هذا فالأسرة الشمسية ، بما فيها الأرض لا تزال (كما كانت) سائرة فى الفضاء ، وهى فى كل يوم فى موضع من الكون يختلف عن الموضع الذى كانت فيه فى اليوم السابق .

وهكذا ، فكل ما فى الوجود فى حركة دائمة لا يعلم منتهاها ومصيرها إلا مبدع الكائنات العليم القدير .

نابلس فوزى حافظ طوقان

ملاحظة :

فى العدد الماضى حدث خطأ فى أحدث العلوم فى ترجمة لفظة Jupiter بالمريخ ، وكان حديث الأقمار الذى فيه تعريب Jupiter وهو المشترى لا المريخ .

الطفل واللغة القومية

(بقية المنشور فى صفحة ٣٠)

إن هذه المرحلة التى تدعو إلى العناية بها ناحيتين : ناحية المنزل ، وهذه تستلزم التفكير فى إصلاح لغة الأبوين ، ولا سيما الأم ، وناحية التعليم ، وهذه تستلزم الاهتمام بالبيئة اللغوية للطفل فى مدارس الحضانة ورياض الأطفال . وأعتقد أن فى كلا الميدانين متسعاً للعمل الآن : فقد نستطيع حكومة وشعباً أن نتعاون على تثقيف الأمهات من طريق إعداد جماعة من المرشدات والآنسات ، يمررن خلال المنازل ويتحدثن إلى السيدات فى الشئون الصحية والأسرية والدينية فى لغة أقرب إلى الفصحى ، وأبعد عن التحريف ، ويقرأن لهن شيئاً من الكتب [illegible] البسيطة ، ويشتركن معهن فى مجتمعات صغيرة ، يأخذن [illegible] الحديث فى شتى الموضوعات .

[illegible] سبيلا آخر على أن يفتحن المساجد [illegible] يوم الجمعة ، وأن يستمعن المواعظ والدروس يلقيها نساء أو رجال متثقفون ثقافة دينية حديثة ، وأن يحيين عهد سابقاتهن أيام الرسول فى حرصهن على حقوقهن ، وعلى ألا يطغين الرجال عليه . ففى كل ذلك نشر للثقافة بينهن ، وتزويد لهن عن غير مباشر باللغة الصحيحة .

وقد نستطيع أن نتخذ من مدارس الطفولة ميداناً خصباً للتجارب النفسانية والتعليمية التى تقوم على تزويد الطفل منذ نعومة أظفاره باللغة العربية . ولعل فريقاً من المهتمين بالتربية يحتذون حذو الأستاذة الانجليزية S. Isaacs فى تأسيس مدرسة تجريبية للصغار من أبناء الأساتذة والمدرسين (مثلا) ، يشرف على نشاطهم فيها معلمات ومعلمون مدربون يتعهدونهم باللغة الصحيحة ، ويدونون ملاحظاتهم اليومية فى سجل يرجع إليه الباحثون بعد فى نمو اللغة وترقيها عند الأطفال .

محمد خلف الله

أنا الغريق ...

بقلم
أحمد ضيف

— ٤ —

وكان أحد أصدقائى قد دلنى على أسرة فى [illegible] بها سيدة وفتاتان ، إحداهما جميلة متزوجة ، والثانية تكاد تكون دميمة ، لم تتزوج ، وهى أكبر من أختها سنا . والأولى فرحة مرحة ، والثانية حزينة كئيبة . والأولى طويلة ممتلئة ، والثانية قصيرة بدينة ، والأولى غضة ناعمة ، والثانية كالغصن الجاف ، والأولى ثرثارة ضحكة طائشة ، والثانية قليلة الكلام ، رزينة مثقفة ثقيلة الظل .

فكنت أتردد على هذه الأسرة [illegible] ربة البيت .

قالت لى مرة :

— إن جوليان (ابنتها الكبرى) غارقة فى لجة من التفكير ، كأنها فى حزن دائم ، ذلك لأنها قاربت الثلاثين ولم تتزوج ، وقد رأت أختها محبوبة من زوجها ، سيدة فى بيتها ، يسعدها رؤية ولدها الصغير ، فزاد ذلك من بؤسها وحزنها .

وتنهدت ثم قالت :

— يا ولدنا من أبنائنا ، إننا نشقى بهم صغاراً وكباراً .

فقلت :

— يا سيدتى إن لدينا خبراً مأثوراً يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

قالت :

— نعم إن الحياة بدون أسرة تكون ناقصة ، ولكن الأسرة قد تكون أيضاً مصدر شقاء ، إننا نحن الأمهات نعرف ما يحول دون سعادتنا ، فعند ما يكون قد طال سن الاقتران ، فإنهن يكن فى حالة من اليأس والحزن معاً . وتنهدت ثانية ثم قالت :

[illegible] الفتاة أن تكون سعيدة فى حياتها ولا ترى السعادة [illegible] إلا فى الزواج . فقد يخيل إليها أنها وهى [illegible] عن عرشها ، فلا تأمل شيئاً [illegible] أن يسعدها الحظ فتقترن بشاب يحبها [illegible] ، فقد كنت يا سيدى وأنا شابة قبل أن أتزوج أعتقد أنه لا هناء لى بال ، ولا أتذوق السعادة إلا وأنا فى بيت زوجى . وكان الزواج كل شىء لى حتى كنت أظن أن له أثراً فى اعتدال مزاجى ، والطيب أخلاقى ، وتقوية عقلى وجسمى . وكأنى فى نفسى شىء لا يستحقه غير زوجى . وكانت عواطفى وإحساساتى وحبى وكلها رهينة ذلك الزوج .

— يا سيدتى وقد تكون هذه حالة الرجل أيضاً قبل زواجه ، فإنه كثيراً ما يرى أن الزوجة الطيبة هى كل سعادته ، وإنه ينتظر حظه وآماله ليجد طيبها فى شخص زوجته فيدفعه ذلك إلى أن يتعلق [illegible] وتعلق به نفسه .

قالت :

— نعم ، ولكن هذه وذاك لابد لهما أن يعيشا فى حياة

من الأمل ، لأن عثور الحظ أكثر ما يكون في البحث عن زوجة صالحة أو زوج طيب . ولقد وقفت أنا في هذا الحظ العاثر ، فلم ألبث إلا قليلا مع زوجي حتى شجر بيننا خلاف في الرأي والذوق والإدراك والفهم والمأكل والملبس والمشرب ، وكنا دائما في طرفي نقيض . وبعد أن زوجته قليلا واختلفت معه ، كنت أرى أن كل رجل خير منه ، وأن كل خلق غير خلقه أفضل منه ، وما كنت أرى منه غير عيوب مجسمة . حتى لقد تمنيت كثيرا أن أتخلص منه ولو بموته أو بموتي ، ولكنني عدت إلى كتب عطلة ، إذ شعرت بالوحدة والغربة من أولادي وأقاربي عند ما فقدت زوجي ، وفقدت بفقده كل حنان وعطف .

وطرق الباب طارق ، فنهضت سيدة الدار ، فاستأذنت وخرجت من عندها .

* * *

وكنت القطار إلى مرسيليا مسا... وذلك في ... فقابلت شيخا من ... وعالما من علماء المعروفين ، ولم تكن بيني وبينه صلة كبيرة لأني عرفته في باريس ، ولم أجتمع به إلا مرة أو مرتين ، ولكنه عند ما رآني هرول إلي ، وسلم علي ورحب بي ، ودعاني إلى منزله ، فأعجبني حديثه وآراؤه ، فكنت أجتمع به كل يوم من أيام سكني في مرسيليا وأنا أنتظر السفينة التي تعود بي إلى مصر .

ورأيت بمرسيليا جماعة من الشرقيين مصريين وسوريين وأتراك ، بين تاجر وطالب علم وسائح ، قذفت به المقادير هناك إبان الحرب ، فلم تقدر على الرجوع إلى بلاده ، فكنا نجتمع معا ونتحدث في الشرق وأحواله ، والشرقيين وما لقيتهم بعد الحرب .

وصارت معرفتي بشيخنا الجليل إلى صداقة صادقة ، فكنت أجلس معه كثيرا ، وأستمع حديثه في الجد والهزل ، والحق والباطل ؛ فقد كان جعبة أفكار وآراء في الناس والحياة والاجتماع والعلم والأدب ، يقول كل ما يجول بخاطره في صدق وصراحة ، غير مبال بما يؤخذ عليه ، ولا مكترث بما يبدو من سامعيه من الارتياح إلى حديثه أو تصديق آرائه .

حدثني مرة فقال :

— لقد مضى علي منذ تركت مصر إلى اليوم ، وتخليت عن منصبي في الحكومة هناك خمسة وعشرون عاما ، قضيتها في باريس وغيرها من مدن أوربا وعواصمها .

وقال :

— ولا أرغب في العودة إلى تلك البلاد التعسة .

قلت :

— ولماذا ؟ أليست بلادنا في حاجة إليك وإلى أمثالك ؟

فمسح بيده على كتفي ونظر إلي وقال :

— كأنك تتجاهل ...

... أنظر حقا ، فإن الرجال عندنا قليل !

... من عدم المبالاة ، وابتسم ابتسامة سخرية واستهزاء :

— إن هذا لا عجب . فإننا نحن الشرقيين لا نعتمد إلا على غيرنا ، ولا نحترم إلا الدخيل في بلادنا ، ولا نثق بشيء من مواهبنا ، ومن أسف أن حقد الزملاء بعضهم على بعض أظهر ما يكون بيننا !

قلت :

— عجبا وغريبا ! لقد شاهدت أثناء مقامي في فرنسا ، ومعاشرتي لكثير من رجال ونساء وشبان وشيوخ ، من أمم مختلفة يردون موارد العلم في باريس ، أن هؤلاء جميعا يحبون باريس ، ويعجبون بالثقافة اللاتينية وعلومها ، ويتمتعون بما في عاصمة الفرنسيين من أدب رائع وإدراك دقيق ، وعلم واسع ، وحرية عامة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو ، ولا يفارقون هذه المدينة إلا لحاجة

تدعوهم بلادهم إليها ، وذلك لإعجابهم أو إغراقهم في الإعجاب بكل ما رأوا وسمعوا ، ولكني لم أر واحداً منهم ذكر بلده بسوء أو نقم عليه ، كما نذكر نحن مصر بما يشوه ذكرها ، وكما نذكر قومنا بما لا يرضى به أحقر الناس لنفسه وقومه ، ولسنا أسوأ حالاً من غيرنا في كثير من عاداتنا وأخلاقنا .

فهز شيخنا رأسه ، ونظر إلي وقال :

— يا أبنائي ، وهذا أيضاً من الأخلاق المكروهة فينا ، ولكننا نحسبها إذا ذكرنا بلادنا وقومنا بسوء ، فذلك مظهر من مظاهر الألم في نفوسنا ، لأننا نحب أن تكون بلادنا خيراً مما هي عليه ، ولعل فينا من ينبهه وراء من نقص فينا ينبهنا أو ينبه الجيل الآتي إلى إصلاح هذا النقص .

قلت :

— إننا نفعل فيما نفعل هذا حب الوطن والتفاني في خدمته ، فما كان أجدرنا بنا [illegible] نتحدث عنهم وبأخلاقهم ... فلو أننا أحببنا وطننا [illegible] الشائعة فينا لكان لنا شأن آخر .

فقال محدثي ، وتحرك من مجلسه ، واتجه إلي كأنه يريد أن يقبض علي ، وكأن في نفسه شيئاً كامناً يريد أن يكشف عنه :

— نعم ولكن الاجتماع ينقصنا في كل شيء ، لا يكاد يكون .

ورفع قدمه إلى آخر ، وأمر كفه لحيته وقال :

— إنه من مميزات بلادنا بروز الشخصية في كل شيء ، والاهتمام بالفرد قبل المجموع ، فكل عمل اجتماعي لا ينجح ، بل أثبت الأعمال وأنجحها ما كان عملاً فردياً ، ولم أر في أمة من الأمم فشل التعاون مثل ما أرى في مصر ، ففي مصر الجماعة فاشلة ، والفردية ناجحة ، وقوة الاجتماع ضعف ، ووحدة الفردية قوة ، لأننا نخدم الفردية فتقوى بنا وتضعف بنا .

قلت :

— نعم هذا صحيح في جملته ... وهو علة من العلل التي يجب أن نعمل على إزالتها ، ولكن ....

فاستمر في حديثه في لهجة من الانزعاج وقال :

— هذه أمة ...... وقطب وجهه وقال :

— إن كل واحد منا يعمل لنفسه ، والشعب ضائع بيننا لا يرشده مرشد ولا يهديه هاد .

وسكت قليلاً ، ونظر أمامه ، ثم حول نظره إلي وقال :

— إني لست من المتشائمين ، ولكني أرى أن هذا الانحلال لا يعود إلى حال من الأحوال ، إذ بيننا تجد طبقة من الناس تنتقل من حال إلى حال ، وتصعد من أسفل إلى أعلى ويتبعها [illegible] فتخرج من الأكواخ إلى القصور ، ومن الفقر إلى الغنى ، وتدفع بأهلها وأمثالها من الجهل إلى العلم ، ومن الظلمة إلى النور ، ولا تفكر في غيرها ، تجد الشعب [illegible] فقيراً ، فقيراً جاهلاً ، ولا يعرف [illegible] ولا يفكر في أنه كغيره من بني الإنسان ، ولا يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

قلت :

— إنك يا سيدي من الناقمين المتشائمين .

قال :

— حقاً ، إني يائس ، أو أكاد أكون يائساً من حال هذا الشعب ، وإني لأخشى أن يكون الجمود سجية وطبيعة فينا ، فإننا رغم معاشرتنا للأجانب النازلين فينا ، وما رأيناه لديهم من تقدم في الحياة ومن مظاهر في الحضارة ، لا نزال على ما كنا عليه منذ قرون ، وإننا نحن المتعلمين أول من يسأل عن هذه العيوب الظاهرة فينا ، لأن الشعوب التي مثلنا يجب أن ترشد وأن تقاد قسراً ، وهذا يحتاج إلى قادة يضحون بأغراضهم وأهوائهم في سبيل رقي شعوبهم ، ومن أسف أننا لسنا من هؤلاء ، لأننا نشأنا على الأثرة

وحب النفس . ولا أخفي عليك أني مثل السواد الأعظم من المصريين أبحث عن سعادتي قبل كل شيء .

ثم هز رأسه الضخم الأصلع ، ونظر إلينا بعينين ذابلتين وقال :

— أملنا فيكم الآن عظيم ، فربما كنتم خيراً منا ومن أسلافكم .

وكان هذا الشيخ من الظرفاء الأذكياء ، الذين لا يبالون بما يقولون ولا بما يعملون ، تجلس أمامه فيحدثك فتصغي إلى حديثه وتلذك عباراته ، وتميل إليه كل الميل ، ويخاطبك بلا كلفة ، وينزل من شيخوخته إلى شبابك ، فيخيل إليك أنك تجالس شاباً أصغر منك سناً ، فتجاريه في أحاديثه بدون مراعاة لكرامة شيخوخته . ومن الناس من تحبه وتميل إليه ، ولكن لا يدفعك ذلك إلى احترامه [illegible] عليك . ولقد كان ينبسط في الحديث فيقول ما لا يقوله مثله لمثلك ، ولكنه كان مع هذا [illegible] المجلس في بسط وخفة روح وصراحة [illegible] .

قال لي مرة :

— أتدري كيف تعلمت ؟ كنت في كتاب من كتاتيب الريف ، أذهب إليه حافي القدمين ، عاري الرأس ، لا يستر جسمي غير جلباب واحد أزرق ، أخرج من بيتي ومعي قطعة من خبز وقطعة من جبن قديم ، وآكل في الطريق ، وفي يوم الخميس والجمعة يلزمني أبي أن أسير وراء عجل يجر ساقية ، وفي يدي سوط أضرب به العجل إذا توانى ، وقد رآني أبي مرة أعبث في الغيط والعجل واقف ليس وراءه أحد ، فتناول السوط من يدي وضربني به ، فلما تركني حقدت عليه ، وكرهت الحياة بين أهلي ، فخرجت هائماً إلى أن وصلت إلى بلدة (المركز) ، وبينا أنا سائر في الطريق أدركني جندي وأمسك بيدي وقادني إلى (المركز) ومنه إلى القطار . فإلى القاهرة ، وأسلمني إلى إحدى المدارس في ناحية من ضواحي المدينة ، فما لبثت أن أصبحت تلميذاً مجداً ، وقد أعجبني ما أنا فيه من نعيم ما كنت أحلم به ، ثم توسم الناظر مني ميلاً إلى الرياضة ، إذ كنت في مقدمة زملائي الرياضيين ، وظهر أني أميل إلى الهندسة ، وكان معلمي يقول لي : إنك من التلاميذ النجباء ، فأرسلتني الحكومة إلى فرنسا فنجحت نجاحاً باهراً والتحقت بكلية العلوم والفنون .

وفجأة نظر أمامه وقال :

— انظر . انظر . قاتل الله هذه الفتاة الجميلة .

وأقبلت سيدة فسلمت وجلست ، فأخذ شيخنا يمازحها ويداعبها .

* * *

وكان لا بد من الرحيل والرجوع إلى مصر ، فعلمت أن [illegible] إلى الشرق محروسة بإحدى [illegible] الغواصات . وكنت كلما جلست [illegible] يوم مغادرتها الميناء ، وسمعت [illegible] يوم الرحيل قد أجل ، لعدم أمن الطريق ، وكانوا يقولون إن الطريق في البحر غير مأمون ، لأنه لا يكاد يخلو من غواصة ألمانية تمخر في جوفه ، وتتحسس واجبه ، وكانوا يتحدثون عن براعة قواد هذه الغواصات وشجاعة ملاحيها ، واستبسالهم في مواقفهم ، وإخلاصهم في عملهم ، ورغبتهم الحقة في الطاعة وحب النظام ، وقالوا إن هذه الصفات هي التي تكسبهم الظفر ، وكثيراً ما تحدثوا في الفنادق بلهجة تنم عن الخوف من هؤلاء ، والإعجاب بهم والحقد عليهم معاً ، ثم من صفاتهم الخلقية وحب الأشياء لبلادهم ، وأن الألماني لا يفرق بين الوطنية والجندية ، إذ خدمة الوطن وخدمة الجيش عنده سواء ، وأن هؤلاء الألمان يحنون للعودة إلى بلادهم التي هي رمز عظمتهم ، وأن الروح الجرمانية روح حربية ، وإذا أراد أعداؤهم أن يحطوا من قدرهم قالوا : ...

— إن الجندي الجرماني جنس وحشي بربري ، لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، وأنه يعيش في عالم من الكبر والخيلاء ، ويعتمد على القوة ، ولا يعرف الحق . ويروون عن امبراطورهم العبارة المأثورة عنه : « القوة تمحو الحق وتزيله » . ورووا عنه أيضاً أنه قال : « لو همت السماء بالسقوط على الأرض لرفعتها بأسنة الرماح والسيوف » .

وكنا نسمع كل يوم أن سفينة غرقت ، وأن غواصة قذفت سفينة بحرية فأغرقتها عن آخرها ، فكان يتملكني الخوف أحياناً ، وأحياناً أتساءل عن مآل ما سيكون ، وأفكر في أن الحياة حب وقدر ، فيهدأ خاطري وتطمئن نفسي .

ولما علمت بموعد قيام تلك السفن ذهبت إلى الميناء ، فرأيت رجالاً ونساء وأطفالاً يصعدون ، وآخرين يودعون ، ويرجعون وهم يبكون ؛ وكان أكثر المسافرين من الجنود ، على أن السفينة لم ت… ورأيت أسرة الجرحى وقتلاهم … وهذا … مضمد وجهه بالأربطة ، وهذا جندي مقطوع الذراع أو الساق ، وهذا أعرج ، وهذا أعمى ، وهذا صحيح ولكنه جريح ، وهذه امرأة تحمل طفلها ، وهذا شاب وهذا شيخ ، وهذا … وهذا …

وكأنما كل راكب ذاهب إلى ساحة الموت ، وكلهم عابس الوجه ، مقطب الجبين ، ذاهل ، حزين ، يائس .

حملت إحدى حقائبي الصغيرة ، وسرت وراء الحمال ، متدافعين بالمناكب ، والعرق يتصبب مني ، ولم يكن الجو حاراً ، ولا الشمس طالعة .. وما زلت أخوض في سواد الناس ، وأسير من مضيق إلى مضيق ، وأصعد وأنزل ، حتى وصلت إلى حجرتي ، ووضعت حقائبي بها ، ووقفت ببابها أنظر الرائح والجائي ، والصحيح والسقيم ، وأتأمل في تلك الوجوه الكئيبة البائسة .

وما كادت الباخرة تهم بالقيام حتى سمعت طلقة (مدفع) قد ضربت وقربت إلى أذني ، وما كنت أستقر في مكاني حتى سمعت طلقة أخرى ، فاشتد ذعري ونظرت إليّ سيدة كانت بجانبي مع أطفالها وقالت :

— لا تخف يا سيدي ، هذه تجربة المدافع التي بالسفينة .

فقلت :

— وهل بالسفينة مدافع ؟

فقالت :

— نعم .. لصد هجوم الغواصات .

ثم نظرت إليّ وقالت :

— لقد امتقع لونك ، فهل أنت خائف ؟

قلت بدون روية :

— نعم .. لا .. لا ، لا أخاف !

… حال أبنائنا في ساحة القتال ؟

… أكن منتظراً أي شيء من الغيّ والحصر ، وهززت رأسي في لحظة من الكذب الصريح :

— لا .. لا .. أبداً .. أنا لا أخاف .

وركبتها صاعداً مضطرباً ، متظاهراً بالشجاعة ، حتى وصلت إلى مكان (المدفع) فرأيت حوله جماعة من المسافرين والدخان متصاعد من فوهته ، والجند يشحنون جوفه .

وسارت السفينة على مهل رويداً ، رويداً ، والمودعون على شاطئ البحر يشيرون بأيديهم وقبعاتهم ، منهم الباكي ومنهم الصامت ، فبكيت أشفقهم ، وأحسست نفسي بأنهم في مأمن مما عسى أن ألاقيه من ذعر وهول !

والتفت ورائي فرأيت مئات من الجنود الجرحى على سطح السفينة ، بجوار كل واحد عكازة ، وهم سمر الوجوه ضئيلة أجسامهم ، خائرو القوى ، باهتة مياه وجوههم .

قلت لجاري : إلى أين يذهب هؤلاء ؟

فقال : هؤلاء من جنود مدغشقر ، جاءوا لمساعدتنا ، وهم الآن راجعون إلى بلادهم ، لأن هذه السفينة ذاهبة إلى مدغشقر عن طريق بور سعيد .

فلما سمعت بور سعيد ، قلت في نفسي :

— متى أرى عاصمة مصر وأهرامها ؟! ومتى أنظر إلى علامتي ؟

— عن طريق بور سعيد ؟! عن طريق بور سعيد ؟!

فقال محدثي :

— نعم يا سيدي ، عن طريق بور سعيد .

وكلما بعدت السفينة عن الشاطئ ، أطللت على البحر وحدي ، وكنا في منتصف النهار وما زالت السفينة تمخر عباب الماء ، وحين قرب منا بعض تلك السفن التي رافقتنا ورأيتها من القريب البعيد ، ونسج الأصيل في السحب خيوطه الذهبية ، وأخذت الشمس تستتر وراء تلك السحب مرة ، وتبرزها أشعتها تارة ، وكأنها أميرة من شرق ، أو حورية تتخير مباهاة لازوردية ، وظهرت الطير مقتحمة نقابات شفافة ، وهي تدنو وتقترب شيئاً فشيئاً من سطح الماء تجري فيه ككتلة من النار ... وما كادت تقترب من الماء حتى غاصت فيه ، واختفت وسط أشعتها الذهبية ... ثم سقطت في اليم سقوط الجندي الباسل في ساحة القتال .

ثم دارت السفن دورة وكأنها ترجع إلى الوراء ، وأظلم الجو وهي تحت منا ، ثم شاهدنا على بعد نوراً واقتربنا من شاطئ مصر ، فقيل لنا هذه مرسيليا قد بدت لنا .

(ع ١١٩)

أحمد ضيف

بين المجلة والقراء

سيدى :

إلى إمام الأدباء الدكتور طه حسين بك :

قد ربط الله بين النفوس من غير طريق الرابطة بين الأجساد ، وقد تتعارف الأرواح وتأتلف ، دون حاجة إلى ما ألفه الناس من اللقاءات والمحادثات . وإنى لصديق رجل أحب من رجال الأدب الرفيع ، وعلى كثرة ما فيه مما يستحق الإعجاب ، كان خير ما أحببت فيه وأكبرته فى أدبه صراحته فيه ، وهو كذلك لنا ترجمان صادق وكثيرا يحمل الثقة ، ويجيز القراء أيها سافرا ، ولو اضطررت فى سبيله لإغضاب من لا يعرف للأدب حقه من الناس فى غضب الغاضب ، وحنق الحنق وعتب العاتب .

لكنى أراك قد خرجت عن مألوفك حين عرضت لكتاب الأستاذ الكبير العقاد « رجعة أبى العلاء » — الذى [illegible] منزلته من الأدب ، ومكانه الفريد فيه — خرجت عن مألوفك خروجا مباينا صراحتك المعروفة ، متجاوزا الحقائق [illegible] إلى الدعابة والرمزية ، التى لم يبح أثرها من [illegible] من حلاوة وطلاوة .

وعدت فى أول عدد من « الثقافة » [illegible] وأن تصور ولو أدبيا ، وأن تعتد ولو أقحمت الرب الحربى مثلك وأحزم مثلك . وإنى على أنى أرى الحركة عنيفة بينك وبين العقاد فى هذه الآونة ، فإنى أرجو أن أراها تارة ثانية فى الأعداد القادمة . وإنه ليحز أن طريقة كرهى لمرقبة بين الأحباب ، آمل أن تستطعت الأطلاع بينكما ، فإن ذلك حرى أن يجب الأدب وأهله خيرا كثيرا ، ويعيد روحا قرعها ، فيه نفع وفيه متعة لا سبيل إليهما من غير طريق النقد الصريح ، والمناظرة الحرة الطليقة بين الأستاذين العظيمين .

والسلام على أستاذى ورحمة الله .

على زكى
وكيل مديرية القليوبية

رد الدكتور طه حسين بك :

أشكر للكاتب الأديب تحيته الطيبة ، وثناءه الجميل ، وحسن ظنه ، الذى أرجو أن أكون له أهلا . وأطلب إليه ألا يتعجل الحوادث ، وألا يفر بالخصومة الأدبية الخالدة قبل إبانها ، فلكل شئ وقته ؛ والأمر بين الأستاذ العقاد وبينى لم ينته ، ولن ينتهى بمقال أو مقالين . فللأستاذ العقاد علىّ دين ثقيل ، لأنه أمتع القراء بكتب كثيرة لم أعلن فيها رأيى بعد . وفى هذه الكتب شعر ونثر ، وفيها قصص ونقد ، وفيها تاريخ وفلسفة . فمادة الخصومة غزيرة ، أغزر جدا مما يظن الكاتب الأديب ؛ وأغزر من أن تحوجه ، أو تحوج غيره إلى أن يسعى بين الأستاذ العقاد وبينى بالرقية التى يكرهها كما يكرهها غيره ، والتى لن تنفع من مودتنا شيئا ، مهما تكن ماهرة بارعة .

[illegible] الخصومة الأنيقة بينى وبين الأستاذ العقاد فى الأدب من بأس . أن تبدأ بالدعابة واللين والنقد الرفيق ، [illegible] صراحة ، ووجب إثارة أعتراضات عن [illegible] الأستاذ العقاد بعد رفيق الحس دقيقه ، وهو [illegible] الأوان حتى حزنا ، يضيق بالنقد ويتأثر بوقعه أكثر مما أضيق وأتأثر . لا يكاد يقرأ فصلا فى نقد كتاب من كتبه حتى يسرع إلى الرد وإلى الرد الذى يتكلف فيه التأويل والتحليل ، وتقدير أصحاب النحو والصرف ، وتخريج أصحاب اللغة والفقه . فالخير كل الخير فى أن نطرق عليه الباب فى رفق ، وأن ندخل عليه بعد أن يأذن لنا فى رقة وظرف . والله يعلم بعد ذلك كيف يكون مقامنا عنده ، وكيف يكون انصرافنا عنه .

وماذا عسى أن يسمع القراء مما سيدور بيننا من حديث ، ومما سيكون بيننا من وداع ؟

فليصبر سيدى مع الصابرين ، ولينتظر ، رب انتظار لم يضع صاحبه ما أنفق فيه من وقت .

وليقبل تحيتى مضاعفة وشكرى مجددا .

طه حسين



عشرة أيام في العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

٥ — إلى النجف الأشرف

في خرائب بابل

قصدنا بغداد بالسيارة قبل ظهر يوم ... لزيارة خرائب بابل، وكان معنا السيد محمود إبراهيم ومفتش الآثار السيد حسين حوق فوصلناها بعد ساعتين، واستقبلنا هناك مدير الحفائر العراقية، وهو أستاذ ألماني عاش بمصر والشام زمناً. قال لنا: لم يبق من بابل، عروس الدنيا ومفخرة الكلدانيين، إلا هذه الأطلال. فقد تضافرت فيضانات الفرات، ومعاول النقابين عن الكنوز، على اكتساح ما سلم منها من يد الهدم والتخريب. وهذا هو مثال في آثار العراق لم يبق منها إلا القليل، فالقصور والمعابد والهياكل كانت تبنى بالآجر، لا بالحجر الصلد، كما بنى قدماء المصريين. وكانت تقام وسط الوادي على شواطئ الأنهار فتخربها الرطوبة، أو تكتسحها الطوفان. وانتقلنا إلى وسط التل فشاهدنا بقايا المعبد وبعد أمن طريق مبلطة، ... جدران عليها نقوش، وتمثالاً من الحجر يمثل أسداً ورجلاً يتصارعان، وقال عنه إنه أهم ما تحتويه هذه الآثار.

وعدنا من الحفائر إلى الحلة لتناول الغداء، وهي تقع عند الضفة اليمنى من الفرات على بعد خمسة كيلومترات من بابل. والحلة عاصمة اللواء، وموقعها في الفرات كموقع المنيا على النيل. وهنا ودعنا صديقنا ورفيقنا في رحلتنا الدكتور محمد عبد المنعم ... وعاد فؤاد ... إلى بغداد.



تمثال من حجر يمثل أسداً ورجلاً يتصارعان

في الكوفة

وواصلنا نحن السير إلى الكوفة، فوصلناها قبيل الغروب بقليل، وعبرنا الفرات على جسر من القوارب، ووقفنا على مدخل الجسر من جهة الكوفة رئيس البلدية ... حيث قدم لنا الشاي ... والسجاد التركي الفاخر. والتقينا في الدار بأحد أدباء الكوفة، السيد محمد رضا الخليلي، وهو صاحب مجلة أدبية تسمى «الاعتدال» تصدر أسبوعية بالكوفة.

وعمارة الكوفة كعمارة الحلة، إلا أنها أكثر اتساعاً وعمراناً، ويجري الفرات تحتها، وموقعها ... كموقع سوهاج على النيل.

في النجف

ثم قصدنا النجف فوصلناها بعد العشاء ونزلنا ضيوفاً بدار سعادة الحاج عبد المحسن بك شلاش وزير مالية العراق الأسبق ، واستقبلنا صاحب الدار وأنجاله استقبالاً حافلاً .



في دار السيد شلاش ... [illegible]
... المعروف .

والدار من طابق واحد ، ولها ... [illegible] الحجر والآجر . جلسنا بمجلس صاحب الدار في صحن سقيفة كبيرة على مقاعد وثيرة ، وجلس في الجناح المقابل بعض أعيان النجف ، ثم وفد للترحيب بنا قائمقام النجف ، سعادة السيد صالح بك جبر . وبعد أن استرحنا دعينا لحجرة الطعام ، ووضعت أمامنا على الخوان أصناف المأكول والمشروب . وأهم ما فيها صحن من الأرز ممزوج بالحمص والزبيب ، وعليه قطعة من اللحم المدوم والتوابل الذكية والبهارات الحريفة .

وبعد العشاء دار الحديث حول المفاضلة بين التعليم قديمه وحديثه ، فذكر الأزهر ، ومدارس النجف ، والجامعة المصرية .

ويعتبر السيد شلاش من أكبر أغنياء العراق ، ومن أوسع أهل الشيعة جاهاً ونفوذاً . يلبس القفطان والجبة والعباءة ، وطربوشاً حوله عمامة على طريقة أشراف النجف ، ويلبس أولاده الحلة والسدارة ، ويتكلم ... ومصر ، ... الحكم العثماني ، ووزارة الأشغال ، ويعرف بالحكمة والتجارة ، وأدار مشروعات ناجحة ، وأنشأ خطاً ... بين الكوفة والنجف ، مسافته خمسة كيلومترات . حدثنا أحد الرفقاء قال : ... كان السيد شلاش وزيراً للمالية ، اضطرت الحكومة إلى دفع ... مرتبات الموظفين في الشهر الأخير من السنة ... من الأجنبي ، ودفع هو المبلغ المطلوب من جيبه الخاص ، ... عن الحكومة .

وفي صباح اليوم التالي نزلنا إلى سرداب الدار للفرجة — ... هذه السراديب من خصائص بيوت النجف — ... إليه في درج معروف ، ويتكون من طابق ... وأحياناً من ثلاثة تحت الأرض ، ... ساعات النهار في الصيف في السراديب ... ويهجرونها في الشتاء . ومعظم السراديب كنظام الطابق الذي فوقه ، به حجر وصالات ومرافق ، وله فتحات للنور والتهوية . وقيل لنا إن بمدرسة السيد كاظم اليزدي سرداباً ينزل إليه بأربع وثمانين درجة . والنازل ... لا يعرفون بها ... في الظل ... ووسائل التهوية الحديثة .

في المقام الشريف

ثم توجهنا راجلين لزيارة مقام سيدنا علي كرم الله وجهه ، فدخلنا إلى حرم المقام من باب ... في البناء الخارجي ، ووجدناه غاصاً بالزائرين والزائرات شأن جميع مزارات الشيعة في شهر المحرم من كل عام . والمقام بناء فخم ضخم مربع الشكل تعلوه قبة من الذهب ... في ضوء الشمس ، وعلى أركانه مئذنتان كالعروسين زينة وجمالاً .

والجدران يكسوها زليج القيشاني الملون بأجمل الألوان، تتألف منها صور الأزهار واشتباك الأغصان، وأبواب المقام من صفائح الفضة وشبابيكه يغطيها الزجاج المشجر. ثم دخلنا الضريح: الله أكبر! أهذا قبر الإمام علي؟ أم معرض للفن؟ أم متحف للنفائس؟ السقف من الخشب الثمين، بالغ الصانع في زخرفته بالنقوش الملونة والتكوينات الهندسية الرائعة، وتدلت من السقف سلاسل الذهب تحمل ثريات البلور، وقناديل الزجاج الملون من أنفس هدايا الملوك والسلاطين. وغطيت العقود والأعمدة بقطع من المرايا بأشكال وأوضاع تبهر حين يمر الأنظار. وعلى الجدران إطارات من ذهب وفضة داخلها آيات قرآنية وأحاديث نبوية من أجمل ما كتبه خطاطو ترك وفارس. وعلى الأثاث يتألق من النفيس الغالي طرزت حواشيها بخيوط الحرير والذهب. وعلى الأبواب والنوافذ ستائر مزركشة من أغلى أنواع المخمل. وأرضية الضريح [illegible] اللؤلؤي القديم النظيف. أبيض [illegible] وأخضر، مطعمة في بعضها بأشكال [illegible]، وفوقها مبسوط أغلى أنواع السجاد تغوص فيها الأقدام. وفي الأركان تحف لا مثيل لها من صناديق ومخدات وثريات ومصاحف من الهدايا والنذور. وعلى القبر الشريف مقصورة من الفضة المموهة بالذهب أفرغ الصانع في نقشها وزخرفتها أسمى ما وصل إليه الفن العربي والفارسي من إبداع وابتكار.



[illegible] رشاقة الفن في مشهد النجف

ثم زرنا في الحرم مكتبة الجامع، وهي في خزانة أحد الشبابيك، أرانا مصحفاً مخطوطاً قال إنه من نفائس المخطوطات، كان قد كتب في صدر الإسلام برسم أحد الخلفاء.

ورأيت في الحرم بعض القرويين يحملون ميتاً يطوفون به حول المقام. فسألت: وهل سيدفن هذا الميت في مقبرة النجف؟ فهمس بعض الرفقاء في أذني قائلاً: أنى له بهذا الشرف؟ إنه فقير لا يملك الأجرة التي تطلبها سدنة المقام الشريف لكي يؤذن له بالدفن.

قلت: وأين يدفن إذن؟

قال: إن أهله يكتفون بسنة [illegible] الذي ناله بهذا الطواف المبارك، ثم يحملونه إلى مقبرة أخرى قريباً أو بعيداً ليدفن فيه.



جامع النجف

وفي الطريق أخبرني سائق السيارة أن مقبرة النجف مقدسة لا يدفن فيها إلا كبار مجتهدي الشيعة وأصحاب الثروات الكبيرة الذين يقدرون على دفع الضريبة. ثم ذكر أن [illegible] قد تبرع أخيراً بعشرين ألفاً من جنيهات نظير السماح له بدفن جثمان المرحومة والدته في المقبرة الطاهرة.

ثم خرجنا إلى شوارع المدينة وزرنا بعض الأسواق ومعظمها مسقوف بألواح من الصاج، والحوانيت صغيرة تباع فيها الحلوى والعطارة والأقمشة. ولاحظت بسقف أحد الأسواق خروقاً كثيرة، فسألت عنها فقيل لنا إنها من بقايا المعركة التي دارت هنا إبان الثورة بين أهل النجف والإنجليز.

التقيت في الشارع بشاب [illegible] قال إنه من [illegible] للمتخرجين في المدرسة الخديوية بالقاهرة [illegible] نفسه قال: أرجو أن تكون مسروراً. قلت: عظيم السرور. قال: إن بمصر قوماً ينسبون إلينا نحن الشيعة أقوالاً وأفعالاً لا تنطبق على الحق، فطمأنته. فقال أرجو أن تبلغ سلامي وتحياتي لأستاذي ناظر المدرسة كتاب بك. قلت: سأفعل إن شاء الله.

ثم عرجنا على مدرسة السيد كاظم اليزدي أحد مجتهدي الشيعة، وهي عبارة عن [illegible] ومساكن ومدرسة يقيم فيها المريدون والمجاورون والفقهاء على حسب نظام الأروقة بالأزهر قديماً، واستقبلنا بها في خلوته السيد علي السيد كاظم اليزدي ابن مؤسس المدرسة، وسألته عن عدد الطلاب بها فقال: نحو مئة وخمسين.

ثم دعينا لزيارة جمعية الرابطة العلمية الأدبية بالنجف، فدخلنا إلى دار كبيرة تشبه الخان، اجتمع في حجرة فيها عدد كبير من الأعيان والأدباء، فشاهدنا وإياهم الشباب [illegible]، وشربنا الشاي، وتناولنا الحلوى، وتبارى خطباؤهم في الترحيب بنا شعراً ونثراً، وأشادوا بعظمة مصر الشقيقة وفضلها على الشرق العربي، ونادوا في الختام بحياة مصر والعراق والملكين المعظمين فاروق وغازي، وجاء دور سعادة العشماوي بك فألقى خطبة جامعة شاملة كان لها [illegible] طرب لها القوم وتحمسوا وهتفوا. ورأيت على منضدة الحجرة بعض أعداد من جريدة تصدر بالنجف [illegible] «الهاتف» لصاحبها السيد جعفر الخليلي، وقرأت [illegible] العدد [illegible] منها مقالاً تحت عنوان «الأدب [illegible]» للأديب الأستاذ حسين مروة.

والنجف الأشرف بلد لطيف تحس بقدسيته من هوائه وجوه وسمات أهله، والمدينة تقع على ربوة في مدخل الصحراء يحيط بها سور وعمارتها حسنة، وتعتبر أهم مراكز الشيعة يحجون إليها من أطراف العالم ويتسابقون في تقديم النذور والهدايا. حدثنا بعضهم قال: إنه قد تجمع على مر السنين لدى سدانة المقام من هذه النذور والهدايا، كنوز من ذهب وجواهر لا تقدر بثمن، ...

الأزرق في أخريات أيامهم بالعراق الاستقلال، فعليها كلها أو بعضها أنفقت نفقات الحرب هم يعجبوا .

في جامع الكوفة

رجعنا إلى الكوفة لمشاهدة جامعها المشهور ، فبدا من بعد كالحصن ، ودخلنا من الباب إلى صحن كبير مكشوف تحيط به غرف صغيرة ، وعلى الجدار قيل لنا إنها لإقامة الزوار أثناء المواسم ، وفي وسط الصحن مسجد ، في الأرض ينزل إليه بدرج من طرقة السراديب قيل لنا إن الصلاة تقام فيه وقت اشتداد الحر زمن الصيف . ورأينا في وسط الجدار الغربي للجامع المكان الذي قتل به سيدنا علي ، قد أقيم عليه سياج من قضبان النحاس والفضة ، وتولع في زخرفته بالبلاط القاشاني الأزرق ، قد ازدحم أمامه كثير كثير مطرقي الرؤوس خاشعي الأبصار ، يبكون ويتوجعون ، ويتقدم الصفوف شيخ هرم كان يبكي وينتحب ويردد بصوت حزين عبارة « أبا علي » .

إلى كربلاء

وعلى باب جامع الكوفة ودعنا مضيفنا السيد ... وأهل النجف شاكرين ، واتخذنا طريق الصحراء إلى كربلاء ، فوصلنا أطرافها بعد ساعة ونصف ساعة ، ورأينا من بعيد قبابها اللامعة تتلألأ في الأفق تحت أشعة الشمس ، ودخلنا المدينة عند الظهر ، فبدت مزينة كأنها في موسم ، ووقفنا إلى مقام الحسين رضوان الله عليه تمثل إلى ... في حرمه ، وهو أعظم ... من قبة الشعشعة ، وجموع الحجاج من حوله يصيحون ويولولون ، ويلطمون الخدود والصدور ، كأن القوم ... في مذبحه ، وهم أن أهل ... الطاهر عن أرض الصحراء ، في حين ... منذ ... خلت .

وقد تركت كربلاء ... وما ... صورة ... قلبية لا تختلف كثيراً عن النجف في طرازها وأسواقها ، والمشهد الحسيني لا يختلف كثيراً عن جامع الكاظمية ... في هندسته وزخرفته .

حدثنا أحد الرفقاء أثناء الطريق في العودة إلى بغداد قال : إن النجف وكربلاء من البلاد التي ليس لها مثيل في كل العراق ، من حيث تقسيم سكانها إلى طبقات ، واختصاص كل طبقة منها بشارات وعلامات ، فطبقة السادة وهم سدنة الحرم والقوات ، يلبسون الطربوش ملفوفاً حوله قطعة من قماش أخضر ، وطبقة الأشراف يلبسون الطربوش أيضاً ملفوفاً حوله قطعة من قماش عادي (قماش أبيض مخطط خطوطاً صفراء قاتمة) ، وطبقة العامة يلبسون العقال والكوفية ، ويتبع السادة والأشراف النجوم والمدن ، ويقومون بخدمة المقام ، وتنظيم حركة الزيارات والحج ، ويعرفون الفارسية ، وتقوم العامة بالتجارة والأعمال الأخرى .

(يتبع) الدمرداش محمد

صاحب مجلة الثقافة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
...
ثمن النسخة ٦ مليمات